

نظرة البدائيين إلى الكون

دراسة في الأنثروبولوجيا المقارنة

جدبت الحياة الدينية عند البدائيين معظم اهتمام علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع الأوائل بحيث لا تكاد تخلو كتابات أى عالم من هؤلاء العلماء فى القرن التاسع عشر من دراسة ملامح الدين البدائي ، بل ان شهرة الكثيرين منهم قامت فى أساسها على معالجتهم لهذا الموضوع بالذات . ويكفى ان نذكر هنا على سبيل المثال كتاب سير جيمس فريزر Sir James G. Frazer عن « الفصصن الذهبى The Golden Bough » الذى يعتبر دائرة معارف كاملة فى الاديان والاساطير البدائية والقديمة ، وكتاب تيلور E. B. Tylor عن « الثقافة البدائية Primitive Culture » وكذلك كتاب عالم الاجتماع الفرنسى الشهير اميل دوركايم Emile Durkheim عن « الصور الاولية للحياة الدينية Les Formes Elémentaires de la Vie Religieuse. » ويعتبر موضوع موقف البدائيين من الكون ونظرتهم اليه من أهم موضوعات الدين البدائي او حتى ما يمكن تسميته بوجه عام بالفلسفة البدائية ، وذلك اذا اعتبرنا المقصود من كلمة « الفلسفة البدائية » هنا مجموع الآراء والافكار والمعتقدات التى تسود فى المجتمع البدائي بوجه عام ، سواء فى ذلك المعتقدات والافكار الخاصة بما هو كائن وقائم بالفعل او تلك التى تدور حول ما يجب ان يكون . فمن هذه الناحية وبهذا المعنى يمكننا القول ان للرجل البدائي فلسفة خاصة به تمثل وجهة نظره فى نفسه وفى العالم الذى يحيط به ، وهى فلسفة لها خصائصها المميزة التى تتمثل فى المحل الأول فى اعتمادها على الاساطير بحيث يمكن وصفها بوجه عام بانها فلسفة فوق طبيعية ، وان كان لا يعنى ابدا ان الرجل البدائي لم يكن يهتم بالامور الواقعية او الطبيعية التى تصادفه فى حياته اليومية ، فالظواهر الكونية والطبيعية يمكن تفسيرها بنوعين من التفسيرات ، احدهما هو ما يمكن تسميته بالتفسير الطبيعي مثل تفسير المطر بتوفر احوال جوية معينة ، والثاني هو التفسير الفوق طبيعي الذى يرد سقوط المطر الى وجود كائنات روحية تسيطر على ماء السماء وتتحكم فيه . ومع وجود هذين النوعين من التفسيرات فى المجتمع البدائي فان معظم التفسيرات التى يقدمها البدائيون لظواهر الكون والطبيعة هي من النوع الثاني ، وهذا لا يمنع

على اى حال من القول بان الفلسفة البدائية جزء من حياة الناس هناك نظرا لارتباطها ارتباطا قويا بافعالهم وتصرفاتهم اليومية ، ونظرا لانها تزودهم بوسائل واساليب يستطيعون بها السيطرة على الكون والتحكم فيه ، او على الاقل تعديل الظواهر الكونية وتوجيهها بما يتفق مع صالحهم الخاص . يضاف الى ذلك ان الاساطير الكثيرة التي تركز عليها هذه الفلسفة تمد الرجل البدائي بأجوبة مغنعة ومقبولة عن كل ما يثور في ذهنه من أسئلة عن العالم والكون ، وعن الانسان والخلق ، وعن الظواهر الكونية المختلفة والعلاقات مع العوالم الاخرى والكائنات الروحية التي تعمر هذا العالم وتغلغل فيه ، وما الى ذلك (1)

ورغم اهتمام العلماء الاوائل بمحاولة التعرف على موقف البدائيين من الكون ونظرتهم اليه فقد كانوا يكتفون في الاغلب بجمع المعلومات الانثروبولوجية المتعلقة بهذا الموضوع ثم سردها بطريقة وصفية ساذجة تكاد تخلو من اى محاولة جديّة للتحليل العميق ، او تبين العلاقة بين الآراء والتصورات الخاصة بالكون من ناحية وبقيّة النظم والانساق الاجتماعية والأخلاقية السائدة هناك من الناحية الاخرى . ويرجع ذلك النقص الى طبيعة المنهج الذى كان يسبغ حينذاك في تلك الدراسات ، وهو عيب تعاني منه الكتابات الانثروبولوجية والاجتماعية المبكرة بوجه عام ويصرف النظر عن الموضوع الذى تدرسه . فهو ليس مقصوداً على دراسة الدين البدائي او الفلسفة البدائية ، وهما الموضوعان الرئيسيان اللذان تندرج تحتهما دراسة موقف البدائيين من الكون .

ومما يؤسف له أن الكتاب والعلماء المحدثين انصرفوا انصرافا يكاد يكون تاما عن معالجة هذا الموضوع في كتاباتهم وكادوا يغفلون تماما مسائل الدين والفلسفة البدائيين ووجهوا معظم اهتمامهم الى انساق ونظم معينة بالذات مثل النسق السياسي والنسق الاقتصادي ومشكلات التغير الاجتماعي والتنمية الاقتصادية وما الى ذلك من أمور تعتبر في نظرهم اكثر ارتباطا بالحياة اليومية وبأقدار هذه الشعوب البدائية ومصائرهما وعلاقاتها بالعالم الغربي ، خاصة وان هذه الشعوب كانت حتى عهد قريب جدا تخضع للاستعمار الاوروبي وتؤلف جزءا من الامبراطوريات الغربية، وكان لا بد من دراسة انساقها السياسية والاقتصادية التقليدية كخطوة أساسية لتسهيل مهمة حكمها واخضاعها من ناحية ، وادخال الاصلاحات الضرورية التي لا تتعارض مع مصالح الدول الاستعمارية ذاتها من ناحية اخرى . والغريب في الأمر ان الانثروبولوجيين الذين اغفلوا دراسة نظرة البدائيين الى الكون لم ينتبهوا الى اهمية هذا الموضوع بالنسبة لتحقيق اهداف الدول الاستعمارية ذاتها . فللموضوع صلة وثيقة بنسق القيم السائدة في تلك الشعوب ، كما ان

(1) يعتقد كثير من علماء الانثروبولوجيا والاجتماع وبخاصة الاوائل منهم أن الرجل البدائي عاجز عن التفكير التجريدى وعن تكوين المفاهيم والتصورات العامة الكلية ، وقد شاركهم هذا الاعتقاد عدد من المشتغلين بفلسفة اللغة مثل ارنست كاسيرر Ernst Cassirer . ويرفض العلماء المحدثون هذه النظرة الضيقة التحيزية ويبنون رفضهم على خبرتهم الشخصية الطويلة بالشعوب البدائية ودراسة انساقهم الدينية وآرائهم عن الكون ونظرتهم الى الحياة . ويفرق البعض في هذا الصدد بين ما يسميه عالم الانثروبولوجيا الامريكى بول رادين Paul Radin « رجل العمل » او « رجل العمل » من ناحية « ورجل الفكر » من الناحية الاخرى ، أو الرجل العملي والمفكر . ونظرا لقلّة « المفكرين » بطبيعة الحال في المجتمع البدائي وانشغالهم في الوقت نفسه بأمور الحياة اليومية كان من السهل على الكتاب (النظرين) الذين لم يتصلوا بالمجتمع البدائي اتصالا مباشرا أن يقعوا في الخطأ وينكروا وجود « فلسفة » بدائية كما ينكروا على البدائيين انفسهم القدرة على التفكير التجريدى . راجع في ذلك :

Radin, P., Primitive Man as Philosopher, Dover Publications, London 1957, pp. 230 ff., White, Leslie; The Evolution of Culture, Mc Graw-Hill, N. Y. 1959, pp. 261 — 63.

دراسته كفيلا بأن تلقى كثيرا من الاضواء على طريقة تفكير الرجل البدائي والمبادئ التي تسيّر ذلك المجتمع والعوامل التي تؤثر في الحياة البدائية ككل ، سواء في المجالات الدينية أو الاجتماعية أو السياسية ، وهي كلها أمور لها اهميتها في سياسة الشعوب البدائية وحكمها .

(١)

ويواجه الباحث في موضوع موقف البدائيين من الكون عددا من الصعوبات قلما يواجهها الباحثون في ملامح الحياة البدائية الأخرى ، وأولى هذه الصعوبات هي قلة الدراسات الحقلية التي تدور حول التصورات الكوزمولوجية عند البدائيين (٢) . والدراسات الحقلية القليلة التي عالجت هذا الموضوع مثل كتابات الأستاذ ايفانز بريتشارد E.E. Evans - Pritchard وجودفري لينهارت Godfrey Lie hardt (٣) انما تعرض لهذه التصورات والأفكار اما بطريقة عرضية واما كجزء من دراسة الدين ككل ، دون أن تعطى لهذه الآراء ذاتها العناية الكافية التي تكفل الحصول على معلومات تفصيلية دقيقة ، وقد أدى ذلك الى قلة الدراسات المقارنة للانماط الكوزمولوجية عند هذه الشعوب والجماعات ، والاكثر من ذلك أن الدراسات القليلة التي بأيدينا ليست على درجة من التقدم تسمح بإجراء تحليل أو تصنيف منهجي دقيق على ما يقول درابيل فورد Daryll C. Forde الذي قام بمحاولة جدية - وإن تكن فاشلة - لتلافي هذا النقص في كتاب شهير اشرف على تحريره ونشره منذ سنوات ونبّه فيه الى ضرورة وأهمية دراسة الانماط الكوزمولوجية عند البدائيين (٤) .

والواقع أن كثرة الانماط الكوزمولوجية وتعددتها وتنوعها لدى الشعوب البدائية تجعل من الدراسة المقارنة الجادة العميقة أمرا من أشق الأمور وأصعبها حتى في حالة توفر المعلومات الاثنوجرافية اللازمة لإجراء مثل هذه المقارنات ، ويرجع هذا التنوع وذلك التعدد الى ارتباط تلك الانماط الكوزمولوجية بالانماط والانساق الاجتماعية السائدة في تلك المجتمعات وبخاصة الانماط الدينية والاقتصادية ، نظرا لأن تصور الانسان للكون واصله ونشأته ونظام عمله يؤلف جزءا هاما من النسق الديني كما أنه يتدخل في تنظيم النشاط والاحتفالات الدينية والشعائرية وفي

(٢) المقصود بالكوزمولوجيا « علم الكون » أي دراسة الكون المادي والقوانين التي تحكم حركته ، وهو يختلف عما يعرف باسم Cosmogony أي دراسة أصل الكون ونشأته. والأقرب أن كلمة كوزمولوجيا تستخدم لكي تشمل دراسة قوانين الكون وأصله معا وهذا هو ما سوف نتبعه في هذه الدراسة. راجع في الفرق بين Cosmogony و Cosmology ما ذكرناه في التمهيد الخاص بهذا العدد من المجلة (هامش رقم ٣) .

(٣) Evans — Pritchard, E.E.; Nuer Religion, O.U.P. 1956; Lienhardt, G., Divinity and Experience: The Religion of the Dinka, O.U.P. 1961.

(٤) المقصود بذلك كتاب :

Forde, D.; (ed); African Worlds: Studies in the Cosmological Ideas and Social Values of African Peoples, O.U.P. 1954.

والكتابات عبارة عن عدد من الفصول التي توفر على كاتبها عدد من علماء الأنثروبولوجيا في بريطانيا وفرنسا بحيث يعالج كل فصل منها بعض المشاكل الكوزمولوجية في أحد المجتمعات الإفريقية، وهي كلها دراسات تقوم على البحوث الميدانية التي قام بها هؤلاء العلماء في تلك المجتمعات . ومما يؤسف له أن كل دراسة من هذه الدراسات المنشورة في الكتاب عالجت الموضوع من زاوية خاصة ومن وجهة نظر المؤلف الخاصة وبذلك خرجت الدراسات كلها وفيها قدر ضئيل فقط من الموضوعات والعناصر المشتركة مما يجعل من الصعب القيام بدراسة مقارنة مثمرة .

تحديد مجالات الحياة الاقتصادية على مدار السنة . والمعروف ان كل مجتمع من المجتمعات البدائية يؤلف في الاغلب وحدة اجتماعية وثقافية تكاد تكون مغلقة ، وذلك نظرا للظروف الخاصة القاسية التي تحيط بهذه المجتمعات . وقد انعكست الاختلافات الثقافية القائمة بين الجماعات والقبائل البدائية - حتى المتجاورة منها - في افكارهم وتصوراتهم وانماطهم الكوزمولوجية ، وان كان هناك بطبيعة الحال قدر من الملامح العامة تشترك فيه غالبية هذه الانماط .

ويزيد من صعوبة الامر دخول كثير من الافكار والآراء الاجنبية الى تلك المجتمعات بعد اتصالها بالحضارة الاوروبية من ناحية واقتباسها لكثير من الافكار المسيحية عن الخلق والكون ، وهي افكار وفدت مع المبشرين المسيحيين وتقبلها كثير من « البدائيين » كجزء من الديانة الجديدة ، وان لم يفلح هذه العناصر المستحدثة في ان تزيل تماما العناصر التقليدية من الوجود ، كما اخفقت في ان تؤلف معها نمطا واحدا مفهوما وخاليا من التناقض . وليس من شك في ان ذلك يقتضي من الباحث الجاد بذل الكثير من الجهد لفهم التضارب بين ما يسميه جونتير فاجنر Gunter Wagner بمستويات الواقع المختلفة ، وادراك هذه المستويات والتمييز بينها لمعرفة ما هو اصيل وما هو دخيل فيها (5) ، وذلك فضلا عن الصعوبة الرئيسية التي تتمثل في عدم وجود نسق كوزمولوجي مستقل وواضح المعالم عند هذه الشعوب ، وانما تشييع الافكار الكوزمولوجية وتوزع بين مختلف النظم والمناشط والعادات بحيث ان محاولة الالمام بها تحتاج الى فحص تلك النظم الاجتماعية والثقافية بدقة وعناية ، وهو مطلب عسير ولا شك .

واخيرا ، فان الباحث في مشكلة الكون عند البدائيين - ومثله في ذلك مثل الباحثين في كل المشكلات المتعلقة بالعقائد والمشاعر والتقاليد الوطنية عند تلك الشعوب - كثيرا ما يلجأ الى المعتقدات والآراء السائدة في مجتمعه وثقافته هولكي يفهم في ضوئها العناصر المماثلة لها في المجتمع البدائي . وقد كانت هذه وسيلة مشروعة وشائعة في القرن الماضي واول هذا القرن - وهي الفترة التي ازدهرت فيها دراسة الكوزمولوجيا البدائية . الا ان هذا الاسلوب في البحث والتفسير يؤدي في الاغلب الى تلوين الثقافة البدائية بوجهة نظر الباحث الخاصة والى تفسيرها وتاويلها في حدود ثقافته هو ومفهوماتها والفاظها . ومن هنا كان الكثير من محاولات تفسير موقف البدائيين من الكون تنقصه الدقة والموضوعية اللتين تتمتع بهما مثلا دراسة النظم الاقتصادية او القرابية او حتى السياسية (6) .

الا ان كل هذه الصعوبات لا تمنع من القول بان دراسة الكوزمولوجيا البدائية لا تخلو من كثير من الطرافة الناشئة في المحل الاول من اتساع الموضوع وتشعبه بشكل يضطر معه الباحث الى الالمام ببقية النظم الاجتماعية علاوة على دراسته الدين والعقائد والفلسفة البدائية على ما ذكرنا . وهذا بالذات هو ما يعطي للدراسات الكوزمولوجية عند البدائيين طابعا خاصا يميزها عن الدراسات الكوزمولوجية الحديثة . فالافكار والآراء والتصورات المتعلقة بالكون عند البدائيين جزء من النمط الثقافي والايديولوجي وتعبير عن موقف هذه الشعوب ازاء القوى والظواهر الكونية وبخاصة تلك القوى التي تتدخل بشكل مباشر في حياتهم وتؤثر فيها . وهذا معناه انه لا بد للباحث من ان ينظر الى الكوزمولوجيا البدائية على انها نسق انساني وليس على انها علم طبيعي كما هو الحال في المجتمعات الحديثة المتقدمة حيث تقوم علوم خاصة للكون تهتم

Wagner, G.; «The Abaluyia of Kavirondo (Kenya)», in Forde, op. cit., p. 27 (5)

Forde, D.; «Introduction» in Id; op. cit., pp. xiii — xlv (6)

ة قوانينه واصله المادى دراسة موضوعية تلتزم بحدود واضحة المعالم ويتوفر عليها علماء صون لا يكادون يتعدون في دراساتهم تلك الحدود . واذا كانت الكوزمولوجيا الحديثة تدور ل الاول حول ما تتكشف عنه الملاحظة العلمية المنهجية الدقيقة من حقائق ووقائع يد وبيانات فان دراسة الكوزمولوجيا البدائية تهتم في المحل الاول بالتعرف على تصور ناس في تلك المجتمعات لهذا الكون وآرائهم فيه وافكارهم عنه بصرف النظر عن الحقائق لى والشواهد والبيانات .

الصعب دراسة الكوزمولوجيا البدائية بالتفصيل والاحاطة بكل جوانب الموضوع في مقال ،ولذا فلا بد من ان نحدد جوانب ومشاكل معينة بالدات تكفي في مجموعها لاعطاء فكرة عة عن نظرة البدائيين الى الكون . ويبدو ان هناك ثلاثة موضوعات هامة تفرض نفسها باحث وتؤلف معا وحدة عضوية متماسكة، ونعني بها فكرة الخلق ، وتصور البدائيين للكون، ف الرجل البدائي من هذا الكون والمحاولات التي يبذلها للتحكم فيه وتسخيره لصالحه . المسائل الثلاث ترتبط بعضها ببعض في تسلسل منطقي كما انها تضم فيما بينها الجانب من المعلومات الانثوجرافية المتوفرة لدينامن الكتابات الانثروپولوجية التي اهتمت بدراسة ع ، وان كنا لن نذكر من هذه المعلومات الا القدر الذى يكفي للتدليل على المبادئ العامة حكم تفكير البدائيين في هذا المجال وتوضيح هذه المبادئ، وذلك حتى لا تخرج هذه الدراسة عن الذى يلتزم به الانثروپولوجيون والسوسيوولوجيون في تحليلهم للظواهر الاجتماعية وظيفيا، وحتى لا تنزلق الدراسة بالتالي الى مستوى الكتابات الفولكلورية التي تهتم اكثر ما بالسرد الوصفي للوقائع والاحداث او للخرافات والاساطير (٧)

(٢)

كانت الفكرة السائدة بين علماء الاجتماع والانثروپولوجيا حتى عهد قريب عن قدرة ين على التفكير هي ان الرجل البدائي يفتقر في تفكيره الى وجود مبادئ منطقية محددة تحكم تفكيره ، كما ان عقله قاصر بطبيعته عن القدرة على التفكير المجرد فضلا عن عجزه عن ادراك ت المختلفة بين الاشياء . وقد عبر عالم الاجتماع الفرنسي الشهير لوسيان ليفي بربل Lucien Lévy عن ذلك الاعتقاد بجملته الشهيرة : « العقلية البدائية عقلية سابقة على Mentalité Prélogique » . وقد كان لهذه الفكرة اثر ضار في الدراسات بولوجية عن التفكير البدائي لأنها وجهتها توجيها خاطئا ، حتى قام عدد من العلماء المحدثين اعتمدوا في دراساتهم على البحوث العقلية او الميدانية بين الجماعات البدائية بتصحيح هذه ، وتبيين ان للرجل البدائي منطقته الخاص الذى قد يختلف في الظاهر عن منطق الرجل ت ولكنه يستند بغير شك الى اسس ومبادئ منطقية واضحة بالنسبة له على الأقل ، ليس ثمة اختلافات جوهرية بين المبادئ المنطقية التي تحكم تفكير الرجل البدائي وتلك حكم تفكير الرجل الحديث ، وان الاختلاف بين نوعي التفكير هو اختلاف في الدرجة وليس

بيما يتعلق بخصوصيات منهج البحث الوظيفي في علم الاجتماع والانثروپولوجيا واختلافه عن طريقة السرد الوصفي لنا عن : « الطريقة الانثروپولوجية لدراسة المجتمع » - مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية العدد العاشر ١٩٥٦ . اجمع بوجه عام الجزء الاول من كتابنا عن « البناء الاجتماعي : المفاهيم » دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٦ ، الفصل الخاص عن « البناء والوظيفة » .

اختلافا في النوع (٨) . وكان لهذا التصحيح أثره في توجيه الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية عن انماط التفكير عند البدائيين توجيها جديدا يقوم على محاولة الكشف عن الاسس التي يرتكز عليها هذا التفكير وفهمها في ضوء الظروف العامة التي تحيط بالمجتمع البدائي . ومهما يقل عن تخلف التفكير البدائي وانه يمثل مرحلة «الطفولة» العقلية كما يصفه بعض الكتاب ، وان الرجل البدائي يحتفظ بنفس المخاوف التي توجد عند الطفل ازاء المجهول وكذلك حب الطفل تنعصص والاساطير واستعداده لان يتقبل اى تفسير للاشياء حتى وان كان خاطئا ومحالا ، فالذى لا شك فيه هو ان الرجل البدائي كان يرغب دائما في التعرف على طبيعة الاشياء واصولها . فهذه رغبة اصيلة في الانسان من حيث هو انسان ، وهي التي تثير فيه حب التساؤل او حب الاستطلاع الذى يعتبر - فيما يتعلق بالفكر البدائي - اصل الميثولوجيا التي يمكن ان نطلق عليها بحق - كما يقول ستر اكان Strachan - اسم « الميتافيزيقا البدائية » (٩) .

ويعتبر مبدأ « العلية » من هذه الناحية من المبادئ الاساسية للفكر الانساني . وقد حاول الرجل البدائي دائما ان يبحث عن اصل الظواهر التي تحيط به وعلة وجودها وكيفية نشأتها ، اى انه كان يرغب دائما في التعرف على طبيعة الاشياء واصولها . ومع التسليم مقدما بأنه كان يقف في كثير من الاحيان عاجزا امام الظواهر الكونية وبانه كان يجهل تماما القوانين التي تحكم الكون - فان ذلك يرجع في المحل الاول الى عدم وجود المعرفة العلمية الدقيقة بالكون التي لم تتوفر الا في مرحلة حضارية متقدمة جدا في حياة المجتمع البشرى ككل ، كما ان ذلك لم يمنعه على اية حال من ان يجد جوابا لكل سؤال من الاسئلة الكثيرة التي كانت تغزو فكره والتي تدور حول أمور أصبحت فيما بعد موضع تساؤل الفلسفة والعلم . فاذا كان الرجل البدائي يفتقر الى المعلومات الصحيحة فقد كان له من الخيلة ما يكفي لان يزوده بتفسيرات لظواهر الطبيعة وخلق الكون ونشوء الانسان وظهوره ، ومن هنا جاءت عبارة جيفونز F. B. Jevons الشهيرة عن ان « العلم الحديث قد تطور ونما من اخطاء الرجل الهمجي الساذج » (١٠) . واذا كان ستر اكان في مقاله الانف الذكر (١١) يذهب الى حد القول بأنه حين يحاول الرجل البدائي تفسير كيفية نشأة العالم او الطريقة التي صنعت بها الدنيا فان قواه التأملية والفكرية تفوده الى كل انواع الخطأ والخلط بين الاشياء بحيث تظهر نظرياته في آخر الامر ضعيفة واهنة وخيالية وفيها طفولة وفجاجة ، فالهم هنا هو ان الظواهر الكونية المختلفة افلحت في ان تثير كثيرا من التساؤلات في ذهن الرجل البدائي وبخاصة فيما يتعلق بعلة هذه الظواهر ، وان هذا كله ادى به الى ان يفكر في عملية الخلق واصل الكون وعلة وجوده ، حتى وان كانت التفسيرات والتعليقات التي وصل اليها لا تتفق مع حقائق العلم الحديث .

(٨) من اهم هؤلاء العلماء ايفانز بيريتشارد ويول رادين . وقد كتب ايفانز بيريتشارد في الثلاثينات مقالة بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة يشرح فيها وجهة نظر ليبي بريل شرحا جديدا ويدافع فيها عن آرائه ويبين ان ما كان يقصده ليبي بريل في الحقيقة هو شرح ما توحى به المصطلحات والالفاظ التي استخدمها في كتاباته . وقد ابدى ليبي بريل موافقته على شرح ايفانز بيريتشارد وقبوله له في خطاب خاص ارسله اليه ونشر منذ سنوات قليلة فقط .

(٩) Strachan, J.; « Creation » in Encyclopaedia of Religion and Ethics (James Hastings, ed), Edinburgh 1954, vol. IV.

Jevons, F. B., Introduction to the History of Religion, London 1896, p. 9. (١٠)

Strachan; op. cit., p. 227 (١١)

وعلى الرغم من الاختلافات الشاسعة بين آراء البدائيين وافكارهم وتصوراتهم عن الكون واساليب التعبير عن هذه الافكار والشعائر المتصلة بها فنمة درجة معينة من التشابه بين المبادئ التي تقوم عليها هذه الافكار والتصورات على ما سبق ان ذكرنا . ويظهر هذا التشابه بوجه خاص في المعتقدات المتعلقة بفكرة الخلق لدى الشعوب التي لدينا معلومات كافية عن موقفها من هذه المشكلة . والواقع ان معلوماتنا عن هذه النقطة بالذات غير وافية بالنسبة لعدد كبير جداً من القبائل والجماعات البدائية ، اما لأن العلماء الذين درسوا هذه المجتمعات لم يهتموا بالبحث عن آراء الناس هناك حول فكرة الخلق ، واما لأن هؤلاء العلماء كانوا يعتقدون ان الشعوب البدائية لم ترق في تفكيرها الى المستوى الذي يسمح لها بالبحث عن أصل الكون ونشأته نظراً لأن هذا البحث يتطلب درجة معينة من القدرة على التجريد لا تتوفر في المستويات الدنيا من الحضارة الانسانية (١٢) . وساعد على ذلك كله ان افكار كثير من هذه الشعوب وبخاصة الشعوب التي يضعها علماء الأنثروبولوجيا في أدنى مراحل التطور الفكري والاجتماعي - مثل قبائل استراليا وبعضها على الأقل - ليس لديها فكرة واضحة عن عملية الخلق ، بل ان كثيراً من الشعوب «البدائية» التي حققت درجة أعلى من التقدم ، مثل بعض قبائل افريقيا، ليس لديها سوى بعض افكار قليلة مشتتة وغامضة عن أصل الكون ونشأته ، وهي افكار متناثرة بين عدد كبير من الاساطير ، التي لا تخلو هي ذاتها من كثير من اللبس والغموض وتمتلىء بالحديث عن الآلهة والأرواح والقوى السحرية التي تملأ اسماهم والتي ينجم عن افعالها وتصرفاتها كل ما في الكون من ظواهر .

ولعل اول وأهم عنصر مشترك بين تصورات البدائيين المختلفة المتنوعة عن خلق الكون هو الاعتقاد - بشكل أو بآخر - في وجود كائن أسمي ، أو عدد من الكائنات العليا صدر الكون عنها نتيجة لفعل ارادي هادف في الأغلب . وقد يتخذ هذا الكائن الاسمي صورة الآله في بعض الاحيان كما هو الحال عند كثير من الهنود الحمر وعند بعض قبائل البانتو في افريقيا (١٣) ، أو شكل احدي القوى الأساسية التي تلعب دوراً هاماً في حياة الناس والمجتمع كما هو الشأن لدى كثير من الشعوب النيلية مثل الدنكا الذين درسهم جودفري لينهارت في كتابه الذي سبقته الإشارة اليه . ومع سمو هذا التصور الذي يقترب الى حد كبير من تصور الأديان الأكثر رقياً لفكرة الخلق فان هناك اختلافات كبيرة وجدريية تفصل بين تصور البدائيين وتصورات الشعوب الأكثر تقدماً . فالفكرة البدائية عن الموجود أو الكائن الاسمي لا ترقى الى مستوى فكرة الأديان الراقية عن الله الخالق ، أو فكرة الفلاسفة عن العلة الأولى أو المحرك الأول . فالقوة الخالقة في المجتمعات البدائية - أي كانت الصورة التي تظهر بها - ليست موجودة بذاتها وإنما جاءت الى الوجود من بعض القوى الأخرى الغامضة التي سبقته عليها في الوجود ، كما ان ظهور الخالق عن هذه القوى الغامضة تم بطريقة غير واضحة وغير مفهومة حتى بالنسبة للبدائيين انفسهم . ففي بيرو مثلاً نجد ان خالق الكون الذي يعرف باسم « كُن Con » جاء نتيجة لاتصال الشمس والقمر ، ويتصوره الناس كائناً خالياً من العظام ويعتقدون انه هو الذي وزع البحار والصحارى والجبال والوديان تبعاً لرضاه أو غضبه على الناس في مختلف البقاع . بل الأكثر من ذلك ان « كُن » لم يكن هو الخالق الوحيد وإنما جاء من بعده « خالقون » آخرون انحدروا ايضاً من الشمس والقمر ، وقد أسهم كل منهم بنصيب

(١٢) انظر في ذلك ما سبق ان قلناه عن هذا الموضوع في التمهيد الذي صدرنا به هذا العدد .

(١٣) راجع في ذلك مقال الاستاذ روبرت لوي Robert Lowie عن « خلق الكون » في العدد الرابع من دائرة معارف الدين والاخلاق (المرجع السابق ذكره) ، وكذلك الفصل الخاص بالكوزمولوجيا عند قبيلة ابا لوويا والذي كتبه جنتر فاجنر في كتاب « عوالم افريقية » - المرجع السابق ذكره - الهامش رقم (٥)

معلوم في عملية الخلق وبخاصة خلق الشعوب والسلالات المختلفة (١٤) . ومثل هذه الأفكار توجد لدى كثير من الشعوب الافريقية حتى تلك التي تعترف صراحة بوجود اله أعلى ينسبون اليه عملية خلق الكون . فجماعات الأبالوويتا Abaluyia التي تعتبر من أهم وأقوى قبائل الكافيرونديو Kavirondo (من شعوب البانتو Bantu) يؤمنون بوجود اله أسمى يسمونه ويلى Wele أو نياسايا Nyasaya وانه هو الذي خلق العالم والانسان ، الا أنهم لا يعرفون تماما اذا ما كان هذا اله أسمى قد وجد بداته أو وجدته قوة أخرى أو كائن آخر اسبق عليه في الوجود . وعند هنود الايروكواي Iroquois في أمريكا الشمالية يسود الاعتقاد بأن الالهة الأنثى الأولى التي انحدر منها جميع البشر سقطت من السماء ، مما قد يعني أن هذه الالهة انما خلقت من السماء التي وجدت قبلها على اية حال (١٥) . وواضح من هذه الأمثلة القليلة - وهناك كثير جدا من الأمثلة حول هذه النقطة بالذات لا نجد داعيا لذكرها - ان كثيرا من الشعوب البدائية تتصور خالق الكون قد تم خلقه هو نفسه من بعض الظواهر الكونية . ويبدو أن هذه خاصية أساسية في التفكير البدائي الذي يستطيع أن يجد علة لكل معلول ولكنه يعجز في الأغلب عن أن يتصور وجود موجودات بدأتها دون أن يكون لوجودها علة أو سبب معروف .

وكما يصعب على العقل البدائي تصور وجود خالق موجود بداته يصعب عليه أيضا تصور إمكان خلق الكون من لا شيء ، وانما لا بد أن يكون اله الخالق أو القوة الخائفة قد استعان بأحد العناصر الأساسية في عملية الخلق . ويختلف هذا العنصر أو الجوهر من مجتمع لآخر ، ولكن ليس بين تلك الشعوب البدائية من يتصور أنه في البدء كانت الكلمة ، وانما كان في البدء دائما الماء أو النور أو حتى السماء أو الأرض ومنها نشأت بقية الكائنات والموجودات . ولا يكاد يستثنى من ذلك سوى عدد قليل جدا من الشعوب المعروفة . بل ان هذا الموقف ذاته نجده عند الشعوب التي وصلت الى درجة عالية نسبيًا من الحضارة مثل شعوب المايا Maya القديمة في أمريكا الجنوبية . فقد كان المايا يعتقدون أنه في البدء كانت السماء وكان الماء ، ولكن كل شيء بعد ذلك كان في حالة من السكون والركود والظلام الى ان قام ثلاثة من الالهة وهم جوشوماتز Gucumatz وتيبو Tepu وهوراكان Hurakan وقرروا خلق الأشياء فظهرت الدنيا بما فيها من جبال ووديان وأنهار ، على ما يقوله لوي Lowie . وقد اشتركت هذه الالهة الثلاثة معا في خلق المملكة النباتية في اول الأمر ثم المملكة الحيوانية ، ولكنها لم تلبث ان وجدت النباتات والحيوانات عاجزة عن أن تؤدي فروض العبادة لمخالفيها نظرا لعجزها عن الكلام والنطق ، فحكمت عليها بالقتل لتكون طعاما للانسان الذي خلقت له الفاية (١٦) .

وقد نجد بعض الأفكار الأكثر تطورا وتفصيلا لدى بعض الشعوب الأكبر تقدما . ففي بولينيزيا مثلا نجد أن « اللاهوت » الوطني بلغ درجة عالية من الازدهار بحيث توجد فيه سلسلة طويلة من الالهة . « فقد خلق الكون نفسه من العماء باستخدام مبادئ الوجود وهي الضوء والنفس والفكر . ثم كانت أوائل الالهة بعد ذلك : اله السماء (الأب) والهة الأرض (الأم) . ومن ابنتهما ظهرت الالهة الكبرى في الديانة البولينية وهي تين Tane اله الضوء والرجولة والغابة ، وتو Tu اله القوة والحق والحرب ، ورونجو Rongo اله السلام والوفرة والمطر والطبيعة الخصبة ، وتانجاروا Tangaroa الذي يتحكم في المحيطات » . والواقع أن للسماء والأرض أبناء

(١٤) Lowie, op. cit.

(١٥) انظر مقال لويس سبنس Lewis Spence عن الكوزمولوجيا عند الهنود الحمر الشماليين في الجزء الرابع من دائرة معارف الدين والأخلاق .

(١٦) Lowie, op. cit.

مقدسین آخرين ، الا أن الانسانية انحدرت من صلب (تين) الذى خلق زوجته بنفسه وسواها من تراب (وهذا هو السبب فى أن المرأة مخلوق ارضى معتم وادنى منزلة من الرجل) . ومن هذه الالهة الأسلاف كان يتألف مجمع الالهة التي تؤمن بها كل شعوب بولينيزيا ، وان كانوا يضيفون اليها فى بعض الجهات معبودات أخرى أقل شأنًا وذلك بعد ان أصبحت ذرية هذه الالهة - وهي أسلاف البشرية العظام - آلهة ومعبودات فى بعض جزر المجموعة البولينية (١٧) . وقد تكون هذه احدى الحالات القليلة التي يعتقد فيها احد الشعوب البدائية بأن الكون خالق نفسه ، وهي فكرة نادراً ما تصادفها عند هذه الشعوب حيث لا ينص ما يسميه هاويز باللاهوت الوطني على وجود خالق . ومع ذلك فانه يجب ان نلاحظ فى الوقت ذاته ان هذه الالهة ليست قديمة وانما ظهرت فى الوجود بعد خلق الكون . ولما كان اللاهوت الوطني عند البولينيزيين لا يعترف صراحة بوجود اله خالق يعتبر بمثابة المحرك الأول أو العلة الأولى لكل شيء كان لا بد من أن يعترف بوجود آلهة كثيرين ، ثم يميز فيهم بين الالهة الكبار والالهة الثانويين ، بحيث يشرف كل اله منها على جانب محدد من الكون . ويقول وليام هاويز فى ذلك : ان « كل اله من هذه الالهة ، وغيرها فى المجتمعات الأخرى ، كفيل بأن يشرف على مظهر خاص من مظاهر الطبيعة والحياة . فهي آلهة متخصصة » . وبذلك أصبحت تلك الالهة تشخص مشاغل الناس المختلفة وبالتالي أصبحت رموزاً لتلك المشاغل (١٨) . بيد ان هذا ليس هو كل خصائص الالهة والأرواح ، فهي تمثل الديمومة والقوة والانطلاق من كل قيود الجسد الفاني ، ومن هنا كانت ترمز الى الآمال والتطلعات الانسانية أيضا ، وفى هذه الخاصية بالذات تشترك مع النفوس البشرية التي تمتزج على أية حال ، بطريقة لا شعورية بالأرواح والالهة .

وأخيراً فان تصور البدائيين للخالق يختلف عن تصور الشعوب الأكثر تقدماً فى ان الخالق عندهم كثيراً ما لا يحتل أهم مركز فى النسق الديني ، بل انهم كثيراً ما لا يتوجهون اليه بالعبادة . فشمه اذن نوع من الفصل والتمييز لدى كثير من الشعوب البدائية بين الخالق والمعبود . فقبائل الباكونجو Bakongo الذين يعيشون فى أواسط افريقية مثلاً « يقصون أشياء كثيرة جداً عن نزامبي مبونجو Nzambi Mpungu ، وهو الكائن الاسمى الذى خلق العالم وسن القوانين ، والذى هو خير كله ، والذى يعاقب على فعل الشر كالحنث باليمين وقول الزور والزنى وعدم احترام الوالدين ، ولكنهم مع ذلك لا يعرفون شكله ولا يعبدونه لانهم يعتقدون عبادة الأسلاف » (١٩) . وهذا معناه أن الشعوب البدائية قد تعبد كائنات أخرى أو قوى أخرى خلفها ذلك الخالق غير المعبود كما انه يدل فى الوقت ذاته على غموض فكرة الخلق والدور الذى تلعبه القوى الخالقة فى حياة الانسان والمجتمع .

والظاهر أن الغالبية العظمى من الشعوب البدائية تعتقد ان خلق الكون استغرق فترة من الزمن وتم على مراحل عديدة وان اختلفت الروايات والأساطير - حتى فى المجتمع الواحد -

(١٧) راجع فى ذلك ترجمتنا لكتاب : وليام هاويز ، « ما وراء التاريخ » ، مطبعة لهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٥ ، صفحة ٢٤٣ .

(١٨) الرجوع السابق ذكره ، صفحة ٢٤٤ .

(١٩) الرجوع نفسه ، صفحة ٢٣١ .

حول طول تلك الفترة وترتيب المراحل ، وان كانت هناك أيضا في الوقت ذاته روايات وأساطير أخرى عن أن الكون كله إنما خلق دفعة واحدة في يوم واحد أو حتى في مثل لمح البرق . والأساطير حول مراحل خلق الكون كثيرة ومتعددة . وقد يكفي أن نعرض هنا لاحداها كمثال لتصوير البدايات لهذه العملية .

والأسطورة التي نختارها هنا هي واحدة من أساطير الخلق الشائعة بين قبائل البانتو كافيرونندو Bantu Kavirondo وبخاصة عند جماعات الأبالوويثا الذين سبقت الإشارة إليهم . تقول الأسطورة : لقد خلق الله العالم ، ولكن قبل أن يفعل ذلك خلق السماء لتكون مأوى له يقيم فيه . ولكيلا تسقط السماء رفعها على عمد . وقد خلق الله السماء وحده ويدون مساعدة أو عون من أحد . ثم خلق في السماء اثنين من « الأعوان » أو « المساعدين » ليقيما معه في السماء ويساعدها في عمله ، ومع ذلك فقد ظلت المادة التي صنعت منها السماء سرا مغلقا على البشر . وزين الله بعد ذلك السماء بالقمر ، وكان القمر في أول الأمر أكثر ضوءاً وأشد سطوعاً وأكبر حجماً من الشمس التي كانت هي « الأخ » الأصغر للقمر (٢٠) . ولم تفزع الشمس بنصيبها ولم ترض بإمكانها من القمر فنشب الصراع بين الأخوين وصرعت الشمس أخاها الأكبر ومرغته في الطين . ولم يحاول القمر أن يثأر لنفسه واستكان لهزيمته على أيدي أخيه الصغير ، بل إنه كان من الغباء بحيث طلب منه الرحمة ، فحكم الإله الخالق بأن يكون للشمس الحظ الأوفر من الحجم والضوء وأن تضيء أثناء النهار للملوك والرعماء وجميع البشر بينما يضيء القمر - الذي خبا نوره - بالليل للصوفى وقطاع الطرق والسحرة وبقية الكائنات الأخرى . ثم خلق الله الغمام بعد الشمس والقمر ، ثم خلق النجوم وبقية ما في السماء من مطر وبرد وبرق ، وأصبح المطر هو مصدر كل ماء على سطح الأرض . وأراد الله أن يخلق مكانا لكي يعمل فيه مساعدها وكل ما خلق في السماء فخلق الأرض ، وتم ذلك أيضا بطريقة سرية وغير « مروفة للبشر » ، ثم أرسى على الأرض الجبال وأقام الوديان ، وتساءل الإله : لمن تضيء الشمس إذن ؟ وبذلك خلق الإنسان . وكان أول إنسان رجلا ، ولكن لما كان الرجل قد خلق لكي يرى ويتكلم فقد خلق الله له امرأة ليراها ويتكلمها ، ثم أنزل عليهما المطر ليشربا منه . وملا الماء المنهمر من السماء الوديان والمنخفضات الواسعة فأصبحت بحارا وأنهارا وبحيرات . ومن هذا الماء خلق الله النبات ، ثم خلق الحيوانات والطيور لكي تأكل من هذه النباتات ولكي تعيش هي أيضا في الماء أو على سطح الأرض . ولم يكن الرجل يعترف امرأته في بادئ الأمر ، فلما « عرفها » حملت منه وانجبت . وتزوج الأخوة والأخوات وانجبوا وبذلك عمرت الأرض . وقد تم خلق العالم كله في ستة أيام ، ثم استراح الله في اليوم السابع لأنه كان يوم نحس وشؤم (٢١) .

(٢٠) الشمس في لغة البانتو مذكر كالقمر تماما .

(٢١) Wagner, op. cit., pp. 28 — 30 . ومن الأمثلة على ذلك أيضا ما نجده عند هنود الأيروكواي Iroquois في أمريكا الذين يرون أن السماء كانت موجودة في البدء ولم تكن هناك أرض ، وحين سقطت الجدة الأنثى الأولى من السماء على ما ذكرنا ظهرت الأرض فجأة وهي نفور نحت قدميها ، وأخذت الأرض تكبر شيئا فشيئا حتى تكونت بلاد الأيروكواي . انظر في ذلك مقال لويس سينس في دائرة معارف الدين والأخلاق . الرجوع السابق ذكره (الهامس رقم ١٥)

وتأثير قصة الخلق والتكوين المسيحية واضح في هذه الأسطورة وان كان من الصعب على ما ذكرنا التمييز بشكل قاطع ونهائي بين الأصيل والدخيل في الأسطورة ، وبصرف النظر عن مدى عمق التأثيرات المسيحية هنا فان فكرة المراحل في الخلق ظاهرة شائعة في كل القصص والأساطير المتعلقة بخلق الكون . بل ان فكرة المراحل كثيراً ما تظهر في الأساطير البدائية التي نتناول خلق جانب واحد محدد من الكون . مثال ذلك ما نجده عند المايا من أن الانسان ذاته لم يخلق دفعة واحدة وعلى الصورة البشرية المعروفة بل تم ذلك على مراحل عديدة مختلفة ، وأن الخالق كان يستخدم في كل مرحلة عناصر ومبادئ مختلفة . اذ كان يكتشف في كل مرة وجود بعض النقص والعييب في خلق الانسان وتكوينه وقدراته وملكانه، وهو نقص ناشئ عن طبيعة المواد والعناصر المستخدمة في خلقه . واستمرت هذه « التجارب » فترة طويلة من الزمن حتى أمكن للآلهة أن تصل في آخر الأمر الى صنع الانسان في صورته المعروفة الحالية (٢٢) .

وواضح من هذا كله أن معظم أفكار البدائيين عن خلق الكون ونشأته بعيدة تماماً عن الفلسفة وعن التفكير الفلسفي بالمعنى الدقيق للكلمة ، وهذا لا يتعارض مع ما قبل عن الفلسفة البدائية في بداية هذه الدراسة، كما أن هذه الأفكار والتصورات أقرب في طبيعتها الى الفولكلور ، ليس فقط لخلوها من الآراء والنظرات الفلسفية المجردة بل وايضاً لاعتمادها في المحل الأول على أسلوب التعبير الميثولوجي الذي لا يستند الى الحقائق العلمية المؤكدة . وهذا امر طبيعي ومفهوم نظراً للمستوى الثقافي الذي وقفت عنده هذه الشعوب . والواقع أن العالم الذي يتحرك فيه الرجل البدائي هو في عمومه عالم سحر وشعوذة وأساطير وخرافات كما أنه ملئ بالارواح والأشباح والقوى الروحية الخفية التي يستعين بها في محاولته فهم اسرار الكون وتفسير الظواهر الكونية المختلفة . وهذا ينقلنا الى الكلام عن تصور البدائيين للكون وللظواهر الكونية والطريقة التي تعمل بها هذه الظواهر .

(٣)

تشغل « أساطير الطبيعة » الجانب الأكبر مما يمكن تسميته على سبيل المجاز بالتراث الثقافي البدائي ، على أساس أن الثقافة - في رأي الأنثروبولوجيين - هي حسب تعريف تايلور « ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى » (٢٢) التي تسود في مجتمع من المجتمعات . والمقصود بأساطير الطبيعة الأساطير التي تدور حول الظواهر الطبيعية المختلفة وبخاصة تلك الظواهر التي تؤثر بشكل مباشر في حياة الناس هناك .

Lowie, op. cit (٢٢)

Tylor, E. B., Primitive Culture: Researches into the Development of Mythology, (٢٢)
Philosophy, Religion, Language, Art and Customs, London 1913, vol. I

ويعتبر هذا التعريف للثقافة أبسط تعريف في الكتابات الأنثروبولوجية . وقد وضعت عدة مئات من التعريفات للكلمة تعبر عن وجهات نظر مختلفة ولكنها جميعاً لا تخرج عن ذلك التعريف البسيط الذي وضعه تايلور منذ حوالي قرن .

وربما كان أهم مبدأ يمكن في ضوءه فهم نظرة البدائيين الى الكون هو ما أطلق عليه تايلور اصطلاح « أنيميزم Anumism » (٢٤) أى حيوية الطبيعة، على اعتبار أن الرجل البدائي يعتقد في تقمص الأرواح كل قوى الطبيعة ومظاهر الكون المختلفة الى حد أنه يتصور هذه الظواهر والقوى المختلفة كما لو كانت كائنات متميزة لها ذاتيتها وكيانها الفردي . فكل ما في الكون من شمس وأقمار وأنهار ورياح ومطر ووديان وزلازل وبراكين وما إليها تعتبر عنده كائنات حية كالإنسان تماما ، لأن الأرواح والنفوس تملأ في نظره كل شئىء أو « تسكن » في كل شئىء بما في ذلك الأشياء التي نعتبرها نحن أجساما جامدة . ومن هنا فان هذه النفوس والأرواح تمنح جميع خصائصها ومقوماتها الذاتية لتلك الأشياء المادية .

والأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها على ذلك كثيرة وتمتلىء بها كتب الأنثروبولوجيا وبخاصة كتب الأنثروبولوجيين الأوائل . فقبائل الكوكي Kukis مثلا التي تعيش في جنوب آسيا يعتبرون الأشياء الجامدة كائنات حية عاقلة الى درجة أنهم يطبقون عليها قانون الثأر . فاذا افترس نمر مثلا أحد رجالهم فانهم لن يهدأ لهم بال حتى يأخذوا بثأره ويقتلوا نمرأ في مقابله ويأكلوا لحمه . وإذا سقطت شجرة على رجل فقتلته فانهم يقطعون تلك الشجرة الى اجزاء صغيرة ويبعثونها في جميع الأنحاء . والرجل عند سكان البرازيل الأصليين ينهال بالضرب والعض على الحجر الذي تعثر به أو السهم الذي جرح يده وهكذا . وهذا معناه أن الرجل البدائي يعزو الى الظواهر الكونية المختلفة نفس القدرات والنوازع والانفعالات الموجودة عند الإنسان ، بل أنه يتصور العلاقة بين هذه الكائنات على نمط العلاقات القائمة بين البشر أنفسهم . فالكواكب والأجرام السماوية تتزاوج وتنجب اطفالا ، بل أنه يحاول أن يحدد جنسها ويرسم العلاقات القائمة بينها على هذا الأساس كما يبدو بوجه خاص في نظريته الى العلاقة بين الأرض والسماء أو بين الشمس والقمر . والواقع أن عددا من علماء الأنثروبولوجيا والفولكلور حاولوا أن يكتشفوا نمط العلاقات الاجتماعية الواقعية في العلاقات القائمة بين الأرواح والآلهة بوجه خاص على ما نجد في كتاب « عوالم أفريقية » الذي سبقت الإشارة اليه .

(٢٤) كان تايلور هو أول من استخدم كلمة « أنيميزم » ليعني بها نظرة الإنسان الى كل مظاهر الطبيعة حوله على أنها مليئة بالحياة الشخصية ، وكان ذلك في مقال قصير كتبه لمجلة Fortnightly Review عام ١٨٦٦ بعنوان « الدين عند الهمج . The Religion of the Savages » ومعان موضوع الأنيميزم لم يعالج بطريقة مستوفاة وبشكل جدى الا في كتاب « الثقافة البدائية » الذي ظهرت طبعته الأولى بعد ذلك بخمسة أعوام (١٨٧١) حيث يخصص تايلور ثمانية فصول كاملة تكاد تغطي نصف الكتاب الضخم ، فان أسس النظرية وعناصرها الجوهرية كانت قد وضعت بوضوح في ذلك المقال القصير . وقد ارتبط اسم تايلور منذ ذلك الحين بكلمة « أنيميزم » . وقد اقترح تايلور استخدام هذه الكلمة التي شاعت شيوعا كبيرا في الكتابات الأنثروبولوجية للتخلص من بعض المسابقات والعوائق التي كانت تصادف الباحثين في الأديان البدائية نتيجة لاستعمال كلمتين أخريين هما : « Spiritualism » أى الروحانية أو « المذهب الروحي » و « Fetichism » أى « الفتيشية » أو عبادة البنود . وقد كانت كلمة « Spiritualism » تعنى في الأصل الاعتقاد العام في وجود الكائنات الروحية وأنها تملأ كل شئىء في الحياة (وهي من هذه الناحية تشبه تماما كلمة الأنيميزم) ولكنها لم تلبث أن استخدمت استخداما آخر انحرف بها عن معناها الأصلي فأصبحت تطلق على أحد المذاهب الحديثة التي تعتقد بعض الأفكار الروحية المتطرفة . أما كلمة « فتيشية » فقد استخدمت في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر لوصف الأديان البدائية التي تقوم على الاعتقاد في أن الأجسام الطبيعية كلها أجسام حية وان اختلف نصيبها من الحياة . أما الأنيميزم فهي شيء أكبر وأبعد من مجرد الاعتقاد في المادة الحية أو حيوية المادة . فالرجل البدائي - تبعا لفكرة الأنيميزم - يعتقد أن مظاهر الطبيعة تجمع الى جانب الحياة الخالصة المتمتع بكيان خاص أو شخصية معينة ذاتية كما هو الحال تماما بالنسبة للشخص الحي . ومن هنا كان تايلور يصر دائما على تعريف الأنيميزم بأنها النزعة لاسباغ « الحياة الشخصية » على كل مظاهر الطبيعة . انظر في ذلك كتابنا : « تايلور » - مجموعة نوابغ الفكر الغربي - دار المعارف القاهرة ١٩٥٨ ، صفحات ١٢٢ وما بعدها .

ويتمثل المبدأ الحيوي بأجلى مظاهره في الآراء والأفكار والأساطير التي تدور حول ما يسمى بالمجموعة الكونية الكبرى ، أى المجموعة التي تضم الشمس والقمر والنجوم . فمعظم الشعوب البدائية يقابلون بين الشمس والقمر على أساس اختلاف الجنس كما ذكرنا منذ قليل ، وان كانوا يختلفون فيما بينهم على أي الكوكبين هو الذكر وكذلك على طبيعة العلاقة بين هذه الكواكب وهل هي علاقة بين زوجين أو بين أخوين وهكذا . ومن الطريف أن نذكر أنه عند قبائل الهنود الأليجونكان أسطورة تقول ان الشمس هي الزوج والقمر هو الزوجة وأنهما أنجبا ابناً بتبادلان نريته ورعايته . وحين يحتضن الأب (الشمس) ذلك الابن تحتجب الشمس عنا ويحدث بذلك كسوف الشمس بينما يحدث خسوف القمر حين تحتضن الأم (القمر) ابنها . ويعتقد بعض الهنود الحمر في كندا ان الشمس والقمر أخوان . وتوجد عندهم أسطورة عن اثنين من الهنود أمكنهما القفز الى السماء فوجدا نفسيهما فوق أرض لطيفة يضيئها القمر بنوره الفضي . ولم يلبث القمر أن أقبل عليهما من وراء التلال في شكل امرأة متقدمة في العمر ولكن ذات وجه أبيض لطيف ، فتكلمت اليهما في رقة ولطف وصحبتهما الى أخيها (الشمس) الذي حملهما معه في رحلته اليومية ثم أوصلهما أخيراً الى أرض القبيلة . وعند قبائل الانكا Incas في بيرو أسطورة تقول : ان الشمس والقمر كانا في الأصل أخوين (أخا وأختا) ثم تزوجا ، ويرون في ذلك سبباً كافياً لنشأة عادة زواج الرجل بأخته التي تشيع عندهم . ولا يعنى هذا ان تصورات البدائيين عن العلاقة بين الشمس والقمر هي دائماً علاقات دم أو علاقات جنسية . فالطابع الجنسي لا يصبغ هذه العلاقات في كل الأحوال . ولكن مهما اختلفت طبيعة هذه العلاقات فانها تشبه العلاقات بين البشر الى حد كبير جداً . وهذا نفسه يصدق على بقية النجوم والكواكب بل وعلى كل الظواهر الكونية بل وايضا مظاهر الطبيعة بالمعنى الواسع للكلمة من صخور وآبار وبراكين وشياطين ومساقط ماء ورعد وبرق وما الى ذلك . ولولا تقمص الأرواح في تلك الموجودات والكائنات والظواهر المختلفة لما استطاعت ان (تسلك) بنفس الطريقة التي يسلك بها الانسان ، حسب ما يتوهم الرجل البدائي (٢٥) .

فكان هناك اذن نوعاً من المماثلة الواضحة بين الانسان وسلوكه وبقية الأشياء التي تعمر هذا الكون وطريقة (عملها) أو (سلوكها) كما يجب لبعض الأنثروبولوجيين أن يصفوا حركة هذه الأشياء . ولقد انتبه تايلور بالذات وهو أهم من درس الناحية الحيوية في الفكر البدائي - الى هذه المسألة ، ويقول في ذلك : « لو أننا استعرضنا الميثولوجيا من وجهة نظر أوسع لرأينا ان التطور الحيوي ينطوي تحت تعميم أكثر منه شمولاً . فتفسر أحداث الطبيعة وتفسيراتها على أنها ناتجة عن تمتع هذه الطبيعة بحياة شبيهة بحياة الانسان العاقل الذي يرقب هذه الطبيعة ذاتها ليس الا جزءاً من عملية ذهنية أعم وأوسع ، وأعنى بها تلك النظرية الكبرى ، نظرية المماثلة التي افادتنا كثيراً في تفهم

(٢٥) النظر كتابنا عن « تايلور » المرجع السابق ذكره صفحة ١١٥ وما بعدها . والواقع ان هذه النظرة ليست مقتصرة على البدائيين وإنما توجد أيضاً عند كثير من الشعوب ذات الحضارات القديمة من امثال الهند والصين ، مما يدل - في رأى العلماء الأوائل على الأقل - على ان هذه النزعة الحيوية نزعة انسانية عامة وليست مسألة خاصة بمرحلة معينة من مراحل التفكير الانساني ، وان كانت تضعف بتقدم الحضارة والمجتمع أو تتخذ اشكالا وصوراً أكثر تهذيباً . ولا تزال بعض بنايا ومطلفات هذه النظرة واضحة في المجتمعات الحديثة وتظهر في بعض المواقف التي تعامل فيها الأشياء الجامدة كما لو كانت حية عاقلة . فالرجل الأوروبي حين يصيغ بشيء ما مثلاً فإنه يلقى به الى الأرض أو يركله بقدمه من الفيل . ويسجل لنا الفولكلور الأوربي الحديث الكثير من هذه المواقف والتصرفات . ففي ألمانيا مثلاً ، حين يموت رئيس العائلة كان اهل الميت يلفون خبر الوفاة الى كل خلايا النحل في الحديقة والى كل الحيوانات والماشية في الحظيرة . بل انهم كانوا يلمسون فراشات العجوب في المخزن ويهزون كل الأدوات وقطع الأثاث في البيت لكي تعرف كلها بموت رب الأسرة . ويمكن للتأريخ ان يجد أمثلة عديدة لذلك في :

Taylor, Primitive Culture, op. cit., vol. I., pp. 286 — 87.

العالم المحيط بنا . وعلى الرغم من أن العلم الدقيق لم يعد يركن الآن تماما الى المماثلات او يعتمد عليها اعتمادا كليا نظرا للنتائج الخاطئة التي قد تؤدي اليها ، الا اننا لا زلنا نعتبرها في هذا المقام وسيلة أساسية للكشف والتوضيح . . . فالمماثلات التي يعتبرها الرجل الحديث مجرد أوهام وخيالات كانت تعتبر حقائق واقعية في نظر الانسان القديم » (٢٦) . فالرجل البدائي يستطيع أن يرى حقا السنة النار وهي تلتهم جسم القربان الذي يقدمه للالهة ، كما انه يشعر بالتأكد بأن هناك في جوفه حيوانا حقيقيا يعوى من الجوع ، ويسمع في الرعد صوت عربة اله السماء وهكذا . وليست هذه كلها بالنسبة له صورا شعيرية كما هي بالنسبة لنا ولكنها وقائع وحقائق في نظره . ولم تكن للرجل البدائي بعد كل شيء اية حاجة في أن يتعلم تلك التشبيهات اللغوية التي تتعلمها نحن في مدارسنا الحديثة (٢٧) .

ولسنا بحاجة الى ان نتتبع القصص الخرافية والأساطير التي تدور حول كل مظهر من مظاهر الطبيعة او كل ظاهرة من الظواهر الكونية او حول الأجرام والكواكب والأجسام السماوية المختلفة لان ذلك اقرب في طبيعته الى الدراسات الفولكلورية، كما ان كتب الفولكلور والأساطير ذاتها زاخرة بمثل هذه القصص . والذي يهمنا هنا هو اقرار المبدأ العام الذي يكمن وراء نظره البدائيين الى الكون وفكرتهم عن طبيعة هذا الكون ونعني به المبدأ الحيوي أو الأبيمزم ، على اعتبار ان هذا المبدأ وما نرب عليه من اعتقادات هو الذي يرسم العلاقات بين الانسان والمجتمع البدائيين من جهة والكون ككل من جهة أخرى، أي أنه يحدد موقف البدائيين من الكون على ما سنرى بعد قليل .

ولكن تبقى بعد ذلك مسألة هامة تتصل بهذا الموضوع اتصلا ونيفا كما تتصل بفكرة البدائيين عن الخلق ، وهي الفكرة التي سبقت معالجتها . ولقد رأينا ان نرجى الحديث عن هذه المسألة الى هذا الموضع من الدراسة نظرا لأنها تلقى مزيدا من الضوء على طبيعة الكون - وليس فقط على طبيعة عملية الخلق - كما يتصورها الرجل البدائي .

فلقد سبق ان رأينا ان الكون لم يخلق عبثا وبغير هدف، وانما كانت وراء ذلك ارادة هادفة . وقد ظهر من الاساطير القليلة التي تمثلنا بها والتي تدور بوجه خاص حول مراحل ذلك الخلق ان الانسان كان هو الغاية والهدف من الخلق . فالانسان - كما يقول الدوجون Dogon في غرب افريقيا - هو مركز الكون ، او بحسب تعبيرهم، « بكرة » الكون ، وانه تم تصويره منذ البداية في « البكرة » الاصلية التي نشأ عنها الكون كله ، فهو يجمع بذلك كل خصائص ومقومات الكون بأسره . (٢٨) ولم يخلق الله الكون والانسان ويتركهما لشأنهما وانما خلق أيضا الى جانبهما نظاما أو ترتيبا منهجيا لكي يساعد الانسان في حياته ويمكنه من أن يعيش في هذا العالم في أمن ودمية . وهكذا منح الله الرجل امرأة لكي ينشأ الجنس البشري ويتكاثر على ما يقول الابالوويا Abaluyia ، ومنحه الهواء لكي يتنفس ، ومنحه الشمس لكي تسطع عليه بالنهار والقمر لكي يضيء له ظلمة الليل ، ومنحه الماء

(٢٦) انظر « تايلور » - مجموعة نوابغ الفكر الغربي . المرجع السابق ذكره صفحة ١١٦ . راجع ايضا :

Tylor, op. cit., pp. 296— 97

(٢٧) كتاب « تايلور » صفحة ١١٧ .

(٢٨) Griaul, Marecel and Dieterlen, Germaine; «The Dogon of the French Sudan» in Forde' (ed); op. cit., p. 87; Dieterlen, G., «Les Correspondances Cosmo — Biologiques chez Les Soudanais», Journal de Psychologie Normale et Pathologique, Juillet — Septeembre 1950

لكي يشرب ، كما منحته النباتات والحيوانات لكى يطعم عليها (٢٩) . والنظام في الكون خير ولذا صدر من الاله الخالق . وكل ما يؤدي الى الاخلال بهذا النظام الكوني او النظام الطبيعي شر ولذا فالسائد عند غالبية الشعوب البدائية انه لم يصدر عن الله وانما لا بد ان يصدر عن قوى اخرى او كائنات اخرى مناوئة . فالله الخالق لا يمكن ان يخلق ماهو شر وما هو متعارض في وجوده مع النظام الطبيعي (٣٠) الذي وجد ليبقى . صحيح ان الاله الخالق كثيراً ما يتدخل في شؤون الناس والمجتمع فيصيب البعض بالمرض او غير ذلك ولكن هذا التدخل يتم في العادة لتوقيع العقوبة او الجزاء على بعض الأشخاص الذين يخرجون على المألوف والمعتاد في المجتمع . وهذا لا يتنافى مع طبيعة نظام الكون وطبائع الأشياء لانه انما يحدث للمحافظة على النظام ذاته . وصحيح أيضاً انه كثيراً ما تقع المعجزات التي تعتبر خروجاً على المألوف او على النظام الطبيعي وعلى نظام الكون . ولكن هذه المعجزات انما تصدر من الاله الخالق نفسه ، ورغم ما فيها من خروج على النظام فانها دليل في الوقت ذاته على ان الخالق يظل مسيطراً على الأشياء ويخضعها لارادته (٣١) .

والنظام الطبيعي للكون دليل على استقراره وتباته ولذا كان لا بد من المحافظة عليه بشئى الوسائل . ويذهب هنود ويناجو Winnebago الى ان هذا النظام انما نسا من القدرة على الاستمرار في الوجود وذلك بعد ان استقرت الدنيا على حالتها الراهنة . ففي الأصل لم يكن لاي كائن عضوى ، او حتى اى شئ مادي ، في هذا الوجود صورة دائمة او شكل ثابت يعرف به . وانما كانت الأشياء جميعاً في حالة مبهمه لاشكل لها ولا صورة وكانت تتغير وتتحوّل حسب رغبتها وتبعاً لازادتها الخاصة بحيث تتخذ الصورة التي تريدها سواء كانت صورة آدمية او حيوانية او حتى روحية ، الى ان جاء وقت في تاريخ الانسانية قررت فيه الكائنات العضوية ان تتركس كل قواها وامكانياتها على التغير لشيء واحد : وهو ان تغير ذاتها مرة واحدة والى الابد بحيث لا يطرأ عليها اى تغيير بعد ذلك على الاطلاق . ومنذ ذلك الحين احتفظ كل ما في الكون بشكله وصورته التي نجده عليها الآن ، وان كانت هناك حالات استثنائية ومؤقتة نسيخ فيها الأدميون على شكل حيوانات . فالرغبة الذاتية في الاستقرار والاحتفاظ بالشكل او الصورة ، وبالتالي بالشخصية الذاتية الدائمة ، هي اساس النظام الطبيعي في هذا الكون بعامه وبين الكائنات العضوية بخاصة . وثمة فكرة اخرى قد

Wagner, op. cit., p 43 (٢٩)

(٣٠) تشير فكرة الخير والشر في المجتمع البدائي كثيراً من التفكير وتختلف فيها آراء البدائيين أنفسهم وبخاصة فيما يتعلق بخلق الشر ، او وجوده على اى حال ، في المجتمع . وتذهب قبائل البانتو في ذلك الى حد القول بضرورة التمييز بين نوعين من « الله » : الله الأبيض او الخالق والله الأسود او الشرير ، وهو اله مستقل تماماً عن الاله الخالق ولا يتعاون معه ، حسب ما يقولون . ومع ان قوة الاله الأسود اقل بكثير من قوة الاله الأبيض وقدرته فانه كثيراً ما يتدخل لاضداد عمله وبالتالي الحاق الأذى والضرر بالنظام الكامل الذي خلقه الخالق . ومن هنا كان الناس يقومون بأداء الصلوات ويقدمون الاضحيات والقرابين لالههم الخالق حتى يتبعد عنهم شر الاله الأسود وأذاه . وتذهب جماعات اخرى في افريقيا أيضاً الى القول بان الشر ، وبخاصة الموت الذي يعتبر من أكبر الشرور التي تتعرض لها حياة الإنسان وبالتالي حياة المجتمع ، انما ظهر نتيجة لبعض اللعنات التي حلت بالإنسان لتصرفاته الخاطئة وللآلام التي يرتكبها . وترفض بعض القبائل فكرة وجود اله آخر مناوئ لله الخالق ، وتذهب في تفسيرها لوجود الشر الى ان ثمة نوعاً من الشائبة في العالم تتمثل في وجود قوى الخير وقوى الشر جنباً الى جنب . فكل ما يخرب النظام الطبيعي او العادى المألوف للأشياء ، سواء في العالم الطبيعي او في الحياة الاجتماعية ، يعتبر مظهراً للقوى الشريرة وبذلك يعتبر شراً وخطراً على المجتمع . ويصل بهم ذلك الى حد انهم يعتبرون المشوهين شراً وخطراً لان التشويه خروج على المألوف . والشئ نفسه يصدى على الشخص الذي يسلك بطريقة تتنافى مع القواعد العامة المقبولة في المجتمع : انظر - Ibid, p. 44

Maquet, J.J.; «The Kingdom of Ruanda», in Forde, (ed); op. cit., p. 167

(٣١)

تكون اكثر تقدما من تفسير الوينباجو على الرغم من انها تشيع لدى الماؤوري Maori الذين يعتبرون من ادنى الشعوب البدائية واقلها حظا من الحضارة. فهم يزعمون ان عناصر الخير والشر توجد في كل الموجودات والكائنات ، ولذا كان من الضروري لهذه الكائنات ذاتها ان تعمل لكي تسيطر على هذه العناصر وتتحكم فيها حتى تحافظ على كيانها وحتى تستمر هي ذاتها في الوجود فلا تندثر او تزول نتيجة للصراع بين هذه العناصر . ولكي يتم ذلك اقام الماؤوري عددا كبيرا من الأرواح الحارسة ، وهي كائنات فائقة للطبيعة مهمتها الاشراف على كل مافي الكون من اعمال وافعال بحيث ترد كل شيء وكل كائن الى العمل والنشاط الذي يتلاءم وطبيعته فلا يطفى جانب على آخر . فالنظام الطبيعي يتمثل اذن في الاستقرار والتوازن القائم بين الظواهر الكونية وعناصر الكون المختلفة : بين البشر والحيوانات وبقية الكائنات العضوية ، بين عالم المادة وعالم الروح ، بين عالم الاحياء وعالم الموتى وهكذا .

وتنقسم هذه الأرواح الحارسة الى عدة فئات تتقاسم فيما بينها الاشراف على كل مافي الكون بحيث يشرف بعضها على تصرفات الالهة والأرباب ذاتها ، ويشرف البعض الآخر على الوحدة والسلام داخل المجتمع ، ويتولى فريق ثالث مهمة الاشراف على المكان الذي تتجمع فيه أرواح الموتى والاسلاف ، بينما تشرف فئة أخرى على الأجسام السماوية حتى تظل معلقة في مكانها ، او على اتجاه الرياح وعلى المطر والغمام والبرق والرعد حتى لا يفلت زمامها فتفرق « امنا الأرض » نتيجة لسوء سلوكها (٢٢) .

وهذا كله معناه ان النظام الطبيعي السائد في الكون انما يقوم من اجل الانسان نفسه ، كما انه يرتبط بحياة الانسان ونشاطه . بل ان بعض القبائل مثل جماعات اللويفيدو Lovedu في الترنسفال بجنوب افريقيا يذهبون الى حد القول بان ذلك النظام متعلق تماما بارادة الانسان وخاضع لسلطانه ومشيئته ، شأنه في ذلك شأن القوى والظواهر الكونية ذاتها ، وان في استطاعة الانسان ان يتحكم في ذلك النظام بطرق عديدة كالسحر او استخدام بعض الاعشاب الطبية ذات المفعول الخاص ، او عن طريق الاستعانة بأرواح الاسلاف ، او عن طريق الملكة التي تتمتع عندهم ببعض قوى الالهية او غير ذلك من القوى السرية الغامضة (٢٣) . ولكن هذه مسائل تتعلق بموقف البدائيين من الكون وهو الموضوع الذي نعالجه في القسم التالي من هذه الدراسة .

(٤)

حين قلنا ان فكرة الأنيميزم أو الاعتقاد في حيوية الطبيعة تصلح لأن تكون أساسا طبييا لفهم نظرة الانسان البدائي الى الكون وطبيعته ولتفسير موقفه من ذلك الكون لم تكن نقصد من ذلك ما ذهب اليه بعض الأنثروبولوجيين من أن هذه الفكرة تعني عجز الرجل البدائي عن التمييز بين الأشياء والكائنات المختلفة الموجودة في الطبيعة وفي الكون، أو انه ينظر الى العالم على انه كتلة واحدة من الأشياء غير المتفاضلة وأنه لا يستطيع أن يميز بين ذاته هو والعالم الخارجي تمييزاً قاطعاً . ويقول آخر لم تكن نشايح الرأي القائل بوجود ذلك النوع من المشاركة الغامضة المبهمة التي يسميها لوسيان ليقي بريل Participation mystique والتي يزعم ان الرجل البدائي يتصورها قائمة بينه وبين العالم

(٢٢) Radin, P., *Primitive Man as Philosopher*, op. cit., pp. 250 — 51

(٢٣) Krige, J.D. & E., «The Lovedu of Transvaal» in Forde (ed), op. cit., pp. 61 — 86

الخارجي . فهذه كلها أمور بعيدة عن ذهننا ، بل انها غريبة ايضا عن حقيقة الرجل البدائي وطبيعته . وقد ظهرت هذه النظرة التي تزعمها ليفي بريل والتي اثرت تأثيرا قويا في كتابات الملماء في اواخر القرن الماضي وحتى الثلاثينات من هذا القرن كنتيجة طبيعية لوجود بعض روااسب النزعة التطورية في التفسير ، وهي النزعة التي كانت تنكسر على الرجل البدائي القدرة على التفكير المنطقي وتأيي ان ترى ان الفرق بين الانسان البدائي والانسان المتحضر هو فارق في الدرجة فقط وليس فارقا في النوع ، وبذلك كانت تزعم انه يميل الى ان يوحد بين ذاته والاشياء الخارجية مثلما يوحد الطفل بين ذاته واللعبة التي يلعب بها (٢٤) .

ومع الاعتراف بان الرجل البدائي يتصور العالم الخارجي مليئا بالنفوس والارواح التي تتقمص كل شيء فانه يشعر دائما بكيانه ووجوده المستقلين تماما عن الاشياء . بل انه يقف في معظم الاحيان موقف التحدى من ذلك العالم الخارجي ومن الظواهر الكونية المختلفة . وعلى الرغم من ايمانه بوجود ارواح قوية وجبارة تسيطر هذه الظواهر الكونية والطبيعية فانه يحاول دائما التغلب عليها واخضاعها لمشيئته والتحكم فيها بما يتفق وصالحه الخاص . والواقع ان جانبا كبيرا من سلوك البدائيين لا يمكن فهمه وتفسيره الا اذا نظرنا اليه من هذه الزاوية ، اي على انه نوع من محاولة قهر العالم الخارجي واجباره على الاستجابة لاراداتهم . فالرجل البدائي - كما يقول وليام هاوولز - « له القدرة على ادراك مكانه الخاصة من ذلك الكون وفهم حاجاته ورغائبه ، ولكنه في الوقت ذاته يدرك تماما ان ذلك الكون . لا يستجيب بشكل منتظم لهذه الحاجات والرغائب ، كما ان هناك فجوات واسعة يتعين عليه ان يملأها بشكل ما اذا اراد ان يوفر لنفسه عيشة آمنة طيبة» (٢٥) . واذا كان الرجل البدائي يتصور نفسه مركز العالم بشكل ما وان الكون خلق من اجله او انه كان هو الهدف والغاية من عملية الخلق كلها على ما راينا من الاساطير وقصص الخلق التي اشرنا اليها فان هذا التصور ذاته يحدد العلاقة بين الانين . ولقد راينا ان النظام الطبيعي للكون يتمثل فيما يحقق صالح الانسان ، وان كل ما من شأنه الحاق الاذى بالانسان او الاضرار بمصالحه يعتبر خروجاً على ذلك النظام الطبيعي ولذا يجب رده الى الوضع المألوف . واذا كانت الظواهر الطبيعية والكونية « تتصرف » في كثير من الاحيان بطريقة تتعارض مع مصلحة الانسان وخيره ، كما هو الحال في نورة البراكين والزلازل وتفشي الامراض والابوثة وامتناع المطر عن السقوط او سقوطه بكثرة في اوقات غير ملائمة ، فانه يحق للانسان ان يرد على هذه الظواهر بكل قوته ليذرا عن نفسه شرها . فافعال الطبيعة افعال ارادية نظراً لان الطبيعة والكون وكل ظواهرهما تتمتع بوجود نفوس واوراح وبالتالي تكون لها القدرة على اختيار الطريق الذي تسلكه ، فاذا خرجت على النظام الطبيعي فان من حق الانسان ان يتصرف ازاءها بما يحقق العودة الى ذلك النظام والمحافظة عليه . وعلى الرغم من كل ما يقوله پول رادين عن رجل العمل ورجل الفكر في المجتمع البدائي وعن الفوارق بين الانين ، فان العلاقة بين الانسان البدائي عموماً والكون علاقة عملية تهدف الى الاستفادة من الكون وظواهره ومظاهر الطبيعة الى ابعد حد ممكن وبمختلف الوسائل والاساليب . فليس المهم عند البدائي هو تحليل الواقع بقدر ما هو توجيه ذلك الواقع لما فيه خيره وصالحه كما يقول رادين نفسه (٢٦) .

(٢٤) على الرغم من ان هذا النوع من المشاركة يظهر في كل كتابات ليفي بريل وكثير من اتباعه فان افضل مصدر يمكن الرجوع اليه لفهم هذه الفكرة بوضوح هو كتاب ليفي بريل المسمى :

Les Fonctions Mentales dans les Sociétés Inferieures

(٢٥) وليام هاوولز : « ما وراء التاريخ » ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٢٢٩

Radin, op. cit., p. 246

(٢٦)

وللبدائيين وسائل كثيرة لتحقيق ذلك ، والواقع ان الجانب الاكبر من الممارسات والطقوس الشعائرية التي تمارس في المجتمع البدائي والتي يطلق عليها الأنثروبولوجيون اسم السحر أو الدين يهدف في المحل الاول الى تسهيل الحياة هناك وتمكين الناس من السيطرة على الظواهر الكونية ومظاهر الطبيعة او على الاقل تنسيق العلاقات بين الانسان والكون بما يتفق آخر الامر وصالح الناس انفسهم وخير المجتمع . ويؤلف السحر والدين في المجتمع البدائي جزءاً مما يمكن تسميته بالنسق الايديولوجي ideology ، على اعتبار ان الايديولوجيا - في هذا الصدد - هي نسق المعتقدات التي تفسر طبيعة علاقة الانسان بالكون والممارسات الشعائرية التي تتصل بهذه المعتقدات . ومن هذه الناحية ايضا يعتبر النسق الايديولوجي نوعاً من الاستجابة للحاجة التي يشعر بها الناس لتحديد معنى وجودهم في الحياة . ولذا يحاول النسق الايديولوجي ان يجد تفسيراً لأصل الانسان وأصل الكون وتقريب الحاضر الى الافهام ورسم صورة واضحة للمستقبل (٢٧) .



الشامان عند بعض قبائل الهنود الحمر وهو يجمع بين وظائف رجل الدين والساحر .

وبصرف النظر عن الفوارق التي يحاول علماء الأنثروبولوجيا اقامتها بين السحر والدين عند البدائيين (٢٨) من ناحية والعلاقة بينهما من الناحية الاخرى فان الذي يهمنا هو انهما يشتركان معا في الاهتمام بعالم ما وراء المحسوسات ، كما انهما يتعلقان بالنواحي الخفية الغامضة من التجربة الانسانية . وعلى الرغم من ان الممارسات والطقوس السحرية وكل ما يصدر عن الساحر من افعال سواء كان يستعين في تحقيقها بالكائنات الروحية او بعناصر وعوامل اخرى ، تختلف في طبيعتها اختلافاً تاماً عن مظاهر الدين كما يرتبط مفهومه في اذهان معظم الناس (٢٩) فان السحر

(٢٧) Hammond, P.B. (ed); Cultural and Social Anthropology, Macmillan, N.Y. 1964, p. 233

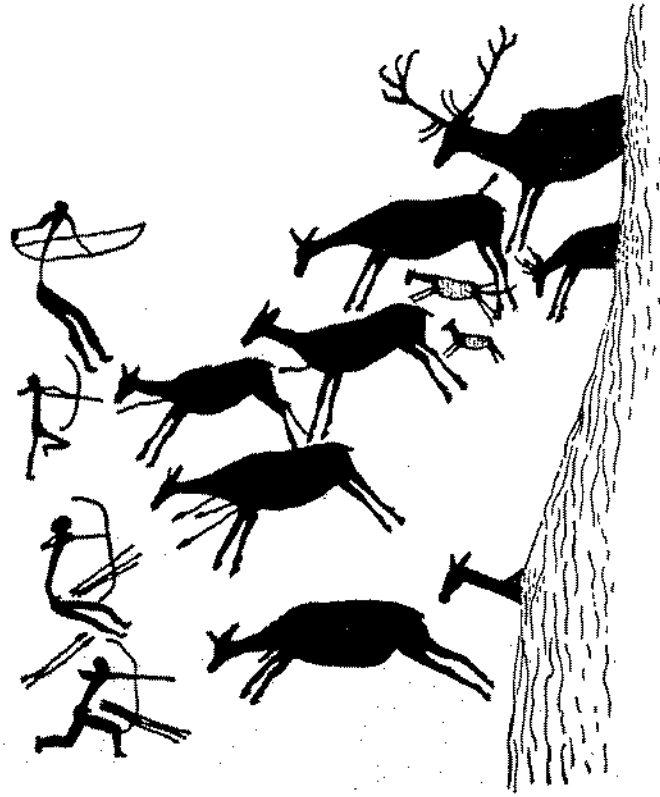
(٢٨) يجد القارئ عرضاً تفصيلياً لآراء بعض علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا من الفوارق بين السحر والدين في الجزء الثاني من كتابنا : البناء الاجتماعي (الانساق) ، صفحات ٥٣ - ٥٢٨ . ومهما يكن من تعارض الآراء واختلافها فان هنالك أساساً يسترشد بها هؤلاء العلماء في محاولتهم التمييز بين السحر والدين ، وربما كان اهم هذه الأسس هو ان الممارسات السحرية كثيراً ما تمارس في الخفاء وقد لا يكون لها مظهر اجتماعي في كثير من الأحيان كما انها تعتمد على عبارات وتعاويد وصيغ قد لا تكون مفهومة حتى للأشخاص الذين يستخدمونها ، وذلك بالإضافة الى ان السحرة يؤلفون في العادة جماعة منعزلة عن رجال الدين واهلياناً عن المجتمع نفسه الذي قد ينظر اليهم في كثير من الارتباب . أما الدين فانه على العكس من ذلك له « كنيسة » بالمعنى التنظيمي - لا الديني - للكلمة ، ويقام شعائره علناً ، وتجد قبولا وتبريراً لها من المجتمع ، كما يستخدم رجال الدين في العادة اللغة العادية السائدة في المجتمع ، بالإضافة الى ان رجال الدين يحتلون مركزاً مرموقاً في الحياة الاجتماعية. الا ان كل هذه الفوارق غير قاطعة تماماً .

(٢٩) Lowie, R.; Primitive Religion. Routledge 1936, p. 137 - انظر ايضا كتابنا عن « تايلور » المرجع

السابق ذكره ، صفحات ١٢ - ١٤ .

والدين يعملان على تحقيق نفس الاهداف ، اوبقول آخر فان الناس انفسهم يلجأون الى الممارسات السحرية والدينية لتحقيق اهدافهم الخاصة ولكن باتباع اساليب مختلفة . فبينما هم يحاولون في مجال الدين تحقيق اهدافهم عن طريق التقرب الى القوى الروحية - سواء اكانت هذه القوى الروحية هي ارواح الأسلاف أو الطواطم أو الآلهة والأرباب - ونيل رضاها بتقديم الصلوات والادعية والقرايين ، فانهم في مجال السحر يحاولون تحقيق هذه الاهداف عن طريق « اجبار » عالم ما فوق الطبيعة او عالم الفيينات على الاستجابة لمطالبهم .

وعلى عكس الحال في المجتمعات المتقدمة يعطى الرجل البدائي كثيرا من الاهتمام والعناية للسحر، بل انه يرى فيه وسيلة أفضل من الدين وأكثر ضمانا لتحقيق المطالب واخضاع مظاهر الطبيعة وظواهر الكون ، ولذا يحتل السحر عندهم مكانة مرموقة ، وبخاصة ما يعرف باسم « السحر الأبيض » الذي يمارس من اجل خير الفرد والمجتمع وليس للاضرار بالآخرين كما هو الحال في السحر الضار Sorcery او السحر الأسود black magic . فوسائل السحر مضمونة لانها تتعلق بارادة الساحر نفسه وقوة تأثير طلاسمه وتعاويذه والعقاقير السحرية التي

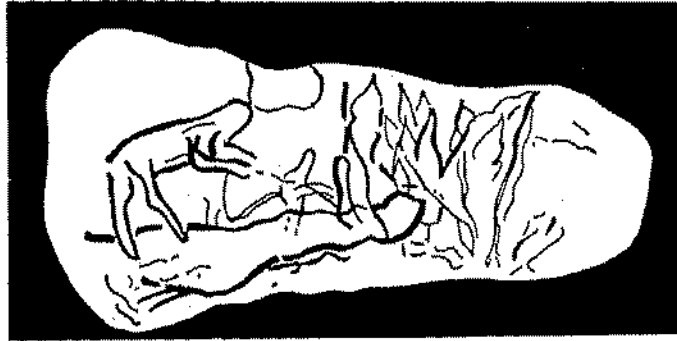


احد النقوش على بعض الكهوف القديمة ويمثل عملية قنص الحيوانات كوسيلة سحرية للتنمك من قنصها بالفعل .

يستخدمها ، وهذه كلها امور لاتتعلق بارادة اخرى غير ارادته . فالسحر يكشف من هذه الناحية عن جانب هام من الفاعلية الايجابية لاتتوفر في الدين البدائي ، كما ان الممارسات لاتخفق في تحقيق النتائج المرجوة الا نتيجة لارتكاب احد الاخطاء البناء ممارسة تلك الطقوس او نتيجة لتدخل بسحر

آخر مضاد يكون اقوى مفعولاً، وذلك بعكس الدين الذي لا يحقق النتائج المطلوبة في كل الاحوال على ما يقول فريزر في مجال مقارنته بين السحر والدين في المجتمع البدائي والمتخلف ورأى البدائيين فيهما (٤٠) .

وأياً ما يكون الامر فان معظم الممارسات الشعائرية ، سواء اكانت تدخل في مجال السحر او مجال الدين ، تهدف كما ذكرنا الى فرض سلطة البدائيين بشكل او بآخر على الكون او على الأقل تنظيم العلاقة بين الانسان والكون ، ومن هذه الناحية فان هذه الطقوس والممارسات تعكس لنا بوضوح موقف الرجل البدائي من الكون . وربما كانت ايسر واهم وسيلة يلجأ اليها البدائيون لتحقيق ذلك هي ما يعرف في الكتابات الانثروبولوجية باسم السحر التشاكلي *homoeopathic magic* ، او سحر المحاكاة *imitative magic* ، وهي تسمية وضعها فريزر في «الفنن الذهبي» اثناء محاولته تصنيف انواع السحر وفنونه . وواضح من هذه التسمية ان الوسيلة لتحقيق ماآرب الشخص الذي يمارس هذا النوع من السحر هي المماثلة او الرمزية القائمة على التشابه ، بمعنى ان يقوم هو نفسه بتمثيل او محاكاة وتقليد النتيجة التي يريد تحقيقها في الحياة الواقعية . وتستخدم هذه الطريقة في كل مجالات الحياة في المجتمع البدائي ابتداء من ايسر الاعمال اليومية الرتيبة الى محاولة التدخل في نظام الطبيعة والكون . فالرجل عند الهنود الحمر في شمال أمريكا مثلاً حين يريد الخروج لصيد الدببة فانه يصنع دمية من القش على شكل دب ثم يرميها برمحه في اليوم السابق على خروجه للصيد ، معتقداً بأنه ما دام افلح في



نقش يمثل رجلاً يقتل حيواناً وهو يرمز اما الى قتل الحيوان الطوطى
واما الى بعض الطقوس السحرية الخاصة بالصيد .

صيد ذلك الدب فسوف ينجح ولا بد في العصور على دب حقيقي وقنصه . وسكان استراليا الاصليون الذين يعتقدون ان الموت يحدث فقط نتيجة للسحر يحاولون الوصول الى معرفة الساحر الذي قتل احدهم بسحره بان يوقدوا ناراً فوق القبر ويلاحظوا اتجاه اللهب ويعتقدون انهم سيجدون الساحر في ذلك الاتجاه ، او هم يلاحظون الاتجاه الذي يسير فيه نوع معين من الحشرات التي تكثر حول القبور هناك ويتتبعون آثار الحشرة معتقدين انها سترشدهم الى مكان الساحر القاتل . وعند الزولو في جنوب افريقيا حين يذهب الرجل لشراء بعض الماشية فانه يمضغ بعض الياق الخشب وهو في طريقه لكي يلين قلب البائع ، كما ان الرجل الذي يريد استمالة قلب المرأة التي يريد الزواج منها يمضغ هو ايضا قلباً مصنوعاً من خشب الاشجار وهكذا . فهذه الامثلة

واشباهاها التي تقوم على ما يسميه تايلور «المنطق البدائي غير الدقيق» ترتكز في اساسها على افتراض ان الاشياء المتشابهة تسلك سلوكا متشابها ، وان ما يصيب واحدا منها يصيب الشبيه ولا ريب (٤١) .

والمبدأ نفسه يصدق على موقف البدائيين من الكون ورغبتهم في التحكم فيه لتحقيق نتائج تتفق ومطالبهم الخاصة . فمن طريق السحر التشاكلي الذي يعتمد على الرمزية القائمة على التشابه يستطيع الرجل البدائي ان يتحكم في الجو والمطر وحرارة الشمس والقيوم وحركة النجوم والكواكب بل وان يسخر القوى الروحية الكامنة فيها لخدمة اقراضه الخاصة . وربما كان افضل



المبالغة في ابراز طول اللسان كوسيلة سحرية للتمكن من الخطابة في مجالس القبيلة ، وبالتالي احتلال مركز ممتاز في التنظيم السياسي القبلي .

(٤١) راجع في ذلك على العموم :

Tylor, E.B., *Anthropology: An Introduction to the Study of Man and Civilization*, 1881 (4 th. ed., 1895) p. 340; Id, *Primitive Culture*, op. cit., p. 118

كذلك راجع كتابنا : تايلور ، المرجع السابق ذكره صفحة ٩٣

مثل لذلك كله هو الطقوس والممارسات التي يمارسها عدد كبير جداً من المجتمعات البدائية في افريقيا و استراليا و قبائل الهنود الحمر في امريكا الشمالية للتحكم في المطر على اعتبار ان مشكلة الماء هي من أهم المشكلات التي يعاني منها البدائيون سواء في المناطق الجرداء التي تفتقر الى المطر الكافي او في المناطق الاستوائية حيث يستند سقوط المطر بكميات هائلة تسبب الكثير من المتاعب للسكان هناك . ففي كلتا الحالتين يحتاج الامر الى ممارسة بعض الطقوس التي تنظم هبوب الرياح وسير الغمام المحمل بالماء وسقوط الكمية الملائمة من الامطار . وحيث يقل المطر في العادة او حيث لا يكون سقوط المطر مضموناً وقت اشتداد الحاجة اليه يمارس البدائيون بعض الطقوس الخاصة بما يسميه علماء الأنثروبولوجيا « صنع المطر Rain — making » وما يمكن لنا نحن تسميته بالاستسقاء . ومع اختلاف هذه الطقوس في التفاصيل فانها كلها تقوم على محاكاة سقوطه عن طريق رش بعض الماء او محاكاة تجمع السحب وتلبد الفيوم واصدار اصوات تماثل صوت الرعد او حك بعض قطع الخشب او الصخر بعضها ببعض لكي تولد بعض شرارات النار التي تماثل وتحاكي البرق وهكذا . والامثلة التي يمكن الاستشهاد بها كثيرة جداً ومتوفرة من كل انحاء العالم ومثلياً بها كتب الانثروبولوجيا . ففي غينيا الجديدة على سبيل المثال يغمس الساحر غصن سجرة معينة في الماء ثم ينثر المياه من الغصن على شكل رذاذ كي يسقط المطر . وعند بعض قبائل الهنود الحمر في امريكا الشمالية وبخاصة عند قبائل اوماها Omaha حين يشتد الجفاف ويتعرض محصول الحنطة للخطر يتجمع الناس حول اثناء كبير مليء بالماء فيقومون ببعض الرقصات الشعائرية وهم يدورون حول الاناء ثم يأخذ احدهم بعض الماء في فمه وينفثه في الهواء على شكل رذاذ خفيف ثم يسكب الماء من الاناء على الارض دفعة واحدة فيلقي الراقصون بانفسهم على الماء المنسكب فيشربونه كله من فوق الارض ويلطخون وجوههم بالطين وينفثون بعض الماء آخر الامر في الهواء لكي يكون طبقة رقيقة من الرذاذ تشبه الضباب الخفيف ، وبذلك يسقط المطر ويتم انقاذ الحنطة . وفي بعض المجتمعات الافريقية حين يمتنع المطر عن السقوط في موسمه المعتاد يتجمع افراد القبيلة معا ويقوم احدهم بسكب قدر من الماء في غربال فينزل على شكل مطر ويسرع الناس الى بيوتهم للاحتماء من ذلك (المطر) وهكذا .

وليست العملية هنا استدرار عطف الكائنات الغيبية او الارواح التي « تسكن » في المطر بقدر ماهى عملية تحكم فيها و « اجبار » لها لكي تنزل على الناس ، ويظهر ذلك على الخصوص في بعض الحالات التي يلجأ فيها الناس الى تهديد هذه الارواح ان لم تسقط عليهم المطر ، بل ان الامر قد يتعدى ذلك الى استخدام القوة الفيزيائية والعنف بالحاق الاذى بتماثيل تصنع لكي تمثل تلك الارواح والكائنات الغيبية المتصلة بالمطر وبذلك يجبرونها اجباراً على ان ترسل عليهم الامطار لقاء لشركهم واذا هم ، او قد يلقون بتلك التماثيل في العراء تحت اشعة الشمس المحرقة حتى ينال تلك الكائنات من العذاب ما اصاب الناس فترسل الامطار وتتخلص هي ذاتها من الاذى ، ومن الطريف ان نجد انه في المجتمعات التي تتعرض للامطار الغزيرة التي تهدد الحياة فيها تزدهر الممارسات والشعائر التي تهدف آخر الامر الى تخفيف الرطوبة الزائدة عن طريق اشعال النيران الشعائرية والامتناع عن الاقتراب من الماء وعن الاستحمام وغسل الملابس كما يحرصون اثناء هذه الطقوس على تناول الاطعمة الجافة فقط . ويلجأ كثير من الشعوب البدائية كجزء من الممارسات السحرية التي ترمي الى منع المطر من السقوط الى وضع قطع من الحجارة في النار حتى يحمر لونها ثم يلقون بها في

الامطار التي لا تلبث ان تتراجع خشية ان تحرقها هذه الاحجار الملتهبة وتكف بذلك عن السقوط ، وفي الوقت ذاته يقوم الناس ببعض الرقصات الشعائرية التي يأتون اثناءها بحركات معينة تهدف الى تشتيت الغمام والضباب . فكان النظام الطبيعي يمكن تحقيقه اذن بالشيء وعكسه بحسب الاحوال (٤٢) .



رقصة الحرب التي يمثلون فيها الهجوم على الأعداء كوسيلة سحرية لضمان النصر .

وتخضع الظواهر الكونية الأخرى بل والأجرام السماوية ذاتها لسلطان الرجل البدائي الذي يتصور مثلاً ان في وسعه ان يعمل على تقديم موعد شروق الشمس وغروبها او تأخيرها حسبما يترأى له ، بل وان يمنع حدوث كسوف الشمس او خسوف القمر . ولقد كان هنود الاوجبواي Ojebway على سبيل المثال يطلقون نحو السماء سهاماً ذات اطراف ملتهبة بالنيران حين يبدأ كسوف الشمس عسى ان يؤدي ذلك الى اشعال ضوء الشمس المتضائل من جديد ، كما ان اهالي جزيرة بانكس Banks Island يحاولون الابقاء على ضوء الشمس الساطع باستخدام شمس زائفة مصنوعة من قطعة مستديرة من الحجارة تعرف باسم « حجر الشمس » فيلقون حوله شريطاً مجدولاً احمر اللون ويلصقون اليه بعض الريش الذي يرمز الى اشعة الشمس ثم يعلقون هذه الشمس الزائفة الحمراء في مكان مرتفع مثل قمة شجرة عالية . وحين يريد اهالي فينيا الجديدة التعجيل بعودة المسافرين الذين طالت غيبتهم فانهم يطلقون السهام نحو القمر او يرمونه بالحجارة حتى يعجل بسيره فتمر الايام بسرعة وذلك نظراً لان الناس هناك يحسون الشهور بالقمر وليس بالشمس . كذلك تشيع الممارسات والطقوس الخاصة بالتحكم في الرياح عند كثير من

الشعوب البدائية التي تعتبر الرياح على العموم كائنات شريراً او شيطاناً يمكن تخويله او ابعاده او حتى قتله . ويظهر هذا بوجه خاص عند الاسكيمو الذين يقاسون الشيء الكثير من العواصف الثلجية التي تهدد حياتهم نتيجة لنقصان الطعام في فصل الشتاء ، ومن هنا كان الاسكيمو يلجأون الى العنف في معاملة العواصف فيضربون الهواء البارد بالسياط المجدولة من الطحالب البحرية او يطلقون عليه السهام ويطعنونه بالسكاكين وهكذا (٤٢) .

(٥)

وفي هذه الأمثلة ما يكفي لتوضيح المقصود من المبدأ العام الذي يحكم موقف الانسان البدائي من الكون والذي يتمثل في محاولة فرض ارادة البدائيين على الظواهر الكونية تحقيقاً للنظام



في الحفلات الشعائرية - وبخاصة المتصلة بعبادة الاسلاف او الشعائر الطوطمية - يصبغ رجال القبيلة (والسحرة منهم على الخصوص) وجوههم باصباغ مختلفة ترمز الى الطوطم الذي يتبعونه .

الطبيعي ومحافظة عليه ، على اعتبار ان هذا النظام الطبيعي يقتضى تسخير المظاهر الطبيعية والقوى الكونية لصالح الانسان وخيره . وقبول هذا المبدأ يساعد على فهم كثير من العادات السائدة في المجتمع البدائي كما انه يلقى كثيرا من الضوء على بعض النظم الاجتماعية ذات الطابع الديني التي اخطأ في فهمها كثير من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع ، وبخاصة العلماء الأوائل ، الذين لجأوا الى بعض التفسيرات الميتافيزيقية التي لا تتفق مع طبيعة الحياة البدائية . والمثالان اللذان نفضل الاستشهاد بهما على ذلك هما نظام « عبادة الأسلاف Ancestor worship » ثم النظام الطوطمي Totemism نظراً لأنهما من أكثر النظم الاجتماعية الدينية انتشاراً بين الشعوب البدائية، وفي الوقت ذاته من أشد هذه النظم جذباً لاهتمام وعناية علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع ، ومع ذلك فقد قامت حولهما تفسيرات غامضة وخاطئة كثيرة تتراوح بين محاولة التقريب بينهما وبين عبادة الأوثان والأصنام من ناحية وفكرة العبرانيين القدماء عن الله من الناحية الأخرى (٤٤) .

وتقوم عبادة الأسلاف على تقديس الأجداد والموتى ووضعهم في منزلة الآلهة والأرباب والاستعانة بهم في التغلب على أزمات الحياة وشدائدتها عن طريق الصلوات والأدعية وتقدم القرابين . ويتركز الدور الذي يلعبه الأسلاف في حياة المجتمع على فكرة أنهم أقرب في نظام الكون الى الاله الخالق أو الى « مجتمع الآلهة » - انصح هذا التعبير - منهم الى مجتمع الأحياء على الأرض، ومن هذه الناحية قد يكونون مجرد وسطاء بين العبد والرب في تلك المجتمعات ، ولكنهم في كثير من الحالات يكونون موضع العبادة والتقديس من دون الاله الخالق على ما رأينا . . وتكتشف لنا عبادة الأسلاف بوضوح عن موقف الانسان من الكون ، فليس الانسان مركز الكون أو الغاية من الخلق فحسب ، وإنما هو أيضاً مركز العبادة والتقديس بعد موته ، أي انه يعبد نفسه أو على الأقل ينزلها منزلة القداسة والألوهية في كثير من المجتمعات . ومع أن موقف الانسان من مجتمع الأسلاف وطريقة تعامله معه يختلفان اختلافاً كبيراً عن موقفه من عالم الغيبيات وأسلوب تعامله معه عن طريق السحر حيث يحاول الانسان أن يتقرب الى أرواح أسلافه ويسترضيها ويستنفرها لحمايته وشد أزره ، فإنه لا يفعل ذلك من موقف ضعيف لأنه يستطيع أن يؤذى هؤلاء الأسلاف ان لم يستجيبوا لدعائه وذلك عن طريق اهمالهم والانصراف عن عبادتهم والكف عن تقديم القرابين والصلوات اليهم فيقعون بذلك في زاوية النسيان. وهذه ناحية قلما ينتبه اليها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا في دراستهم لعبادة الأسلاف . ويذكر لنا بول رادين حواراً طريفاً جرى بين أحد الشهود في محكمة وطنية عند المأزوري وبين القاضي ، إذ يقول الشاهد في موضع من الحوار : « ان الله الذي تكلم عنه ميت » فترد المحكمة « ان الآلهة لاتموت » فيجيب الشاهد : « أنت

(٤٤) الإشارة هنا الى تفسير روبرتسون سميت W. Robertson Smith لنظام الأضحيان والقرابين عند العبرانيين ومحاولته ربط هذا النظام بعبادة قتل الطوطم واكل لحمه عند القبائل الطوطمية . وقد كان روبرتسون سميت في الأصل من رجال الكنيسة الاسكتلندية ولكنه مع ذلك كان حر التفكير ومغرمًا بالكتابة في الموضوعات الأنثروبولوجية وترك آثاراً عظيمة في كثير من التلاميذ ، ومن تآثر به في أول عهده سيرجيمس فرير صاحب « الفصحى الذهبى » . ورغم تربيته الدينية ووظيفته الكنسية فإن روبرتسون سميت كان يذهب الى أن نظام القرابين الدينية في أبسط صورها وأشدها بدائية (ويدخل في ذلك نظام التضحية عند العبرانيين) هو نوع من العشاء الرباني أو القران المقدس أو التناول الذي يشترك فيه الناس واله القبيلة نفسه بعد ان تجسد في صورة الحيوان المذبوح ، أي أنه طوطمي . ولم يكن لدى سميت أية قرائن أو شواهد قاطعة يقيم عليها هذه النظرية كما انه ليس ثمة ما يدل على الاطلاق على أن الشعوب البدائية تعرف نظام التناول الطوطمي بهذا المعنى ، ومع ذلك فقد أثرت هذه النظرية تأثيراً هائلاً ولفترة طويلة على المشتغلين بالدراسات السامية والأنثروبولوجية بل وعلى علماء اللاهوت وعلماء النفس . راجع في ذلك :

Smith, W.R., The Religion of the Semites, Black, London; Evans — Pritchard, E.E., (ed): The Institutions of Primitive Society, Blackwell , pp. 7 — 3.

مخطيء . ان الالهة تموت اذا لم تلق من الناس من يساعدها على الاستمرار في الحياة » . وفي احدى اساطير المازورى أيضاً نجد أحد الأرباب هناك يخاطب ربا آخر فيقول له « حين يكف الناس عن الاعتقاد فينا فاننا نموت » (٤٥) . ومجتمع الأسلاف على اية حال ليس مجتمعا منفصلا وبعيدا كل البعد عن مجتمع الأحياء وانما هو امتداد طبيعي له ، كما ان الفرد يصل اليه في مرحلة معينة من مراحل « حياته » الاجتماعية ، اذ كلما تقدم في السن اقترب من ذلك المجتمع حتى يدخله عن طريق الموت ليحتل فيه مركزاً معيناً بالنسبة لمن ظلوا على قيد الحياة . والعلاقات بين عالم الأحياء وعالم الموتى تؤلف ناحية هامة من الكوزمولوجيا البدائية نظراً للتأثير المتبادل بين العالمين ، وكذلك للتعاون المتبادل القائم على تبادل المصالح بينهما .



رجل يلبس جلد الحيوان الطوطمى لقبيلته .

واذا كانت عبادة الاسلاف تقوم على عبادة الانسان لنفسه فان الطوطمية تقوم على عبادة الحيوانات وتقديسها ، ولا بد من التمييز هنا بين ثلاثة مظاهر مختلفة من عبادة الحيوان ، الأول منها هو عبادة الحيوان في حد ذاته وبطريق مباشر، والثاني هو عبادة الحيوان بطريق غير مباشر في شكل صورة أو صنم أو تمثال يعتبر مكانا يحل فيه احد الالهة ، أما المظهر الثالث فهو احترام الحيوان كطوطم أو على اعتبار انه يمثل الجد الأول للعشيرة . (٤٦) ومع ان كلمة « طوطم » أدخلت لأول مرة الى الانجليزية في عام ١٧٩١ على يد جون لونغ الذي وجدها عند هنود الاجبواي ، وعلى الرغم من كثرة ما كتب عنها فان الكثير من الكتاب لم يفهموا مدلول الكلمة الاصلى (ومنهم جون لونغ نفسه) وخلطوا بين الطوطم والحيوان الحارس الذي يتخذ كل فرد من الصيادين حارسا له ، وظل الفهم الخاطيء شائعا عند كثير من الاثنولوجيين والاجتماعيين حتى بعد ان درست



رجال يلبسون القنعة وملابس تمثل طوطمهم القبلى .

العشائر الطوطمية في شمال امريكا وعرف الدور الذي يؤديه الطوطم في الحياة الاجتماعية وبخاصة في تنظيم قوامد الزواج . ويرتكز النظام الطوطمى على اعتقاد كل عشيرة من العشائر الطوطمية في انها

Tylor, E. B. «Researches on Totmism, with Special Reference to Some Modern Theories (٤٦) Respecting It,» Journal of Anthropological Institute, 1888

كذلك راجع كتابنا من : تايلور صفحة ٧٧ .

انحدرت من صلب احد الحيوانات او على الاصح نوع معين من الحيوانات كلاسود أو النعالب وليس من أسد معين بالذات ، وأنه نتيجة لهذا الانحدار يعتبر جميع افراد العشيرة الطوطمية اخوة وأخوات وبذلك يحرم عليهم التزاوج فيما بينهم (وهذا هو اهم اسباب الزواج الاغترابي او الخارجى الاكسوجامى exogamy) والا اعتبر ذلك الزواج بين افراد العشيرة نوعا من الزنى بالمحارم . كما انه يحرم على افراد تلك العشيرة قتل أو ايداء الحيوان الذى اخذوه طوطما لهم الا فى مناسبات خاصة وبطريقة شعائرية . ومع اختلاف العلماء فيما اذا كانت الطوطمية نوعا من الشعائر والطقوس السحرية على ما يقول فريزر، أو صوره من صور الدين البدائي على ما يقول دور كايم ، فالهم هنا هو موقف الانسان البدائي نفسه من الحيوان الطوطم . فعلى الرغم من تجنب ايداء الطوطم ، وايداء الاحترام لجميع افراد النوع الحيواني الذى يتبعه ، والرهبنة مما قد يلحقه الطوطم به من شر وأذى أن هو لم يراع فى حياته البومية وعلاقاته مع الناس قواعد معينة بالذات وبخاصة فيما يتعلق بصلاته الجنسية، فان موقف الرجل البدائي بعيد كل البعد عن ان يكون موقف الخضوع الكامل للطوطم ، بل ان العكس هو الصحيح كما تدل الشعائر والطقوس التي يقوم بها افراد العشيرة فى مناسبات معينة يقتلون فيها طوطمهم ويأكلون لحمه . فالطوطم يختار لبعض الخصائص التي يمتاز بها والتي يجب أفراد العشيرة أن يتصفوا بها مثل الشجاعة بالنسبة للأسد أو المروعة بالنسبة للثعلب ، أى ان الطوطم وسيلة لكسب مزيد من القدرات والمهارات التي تساعد افراد العشيرة على التغلب على صعوبات الحياة وفهر أعدائهم . واذا كان الانسان البدائي يخضع القوى الفبيية والكونية لسلطانه عن طريق السحر ، ويمد نفوذه الى عالم الالهة انفسهم عن طريق عبادة الأسلاف ، فليس اقل من أن يسيطر على عالم الحيوانات والنباتات فى بعض الاحيان عن طريق الطوطمية .



كان علماء الأنثروبولوجيا فى القرن الماضي ، سأنهم فى ذلك شأن الرحالة والمسافرين ، يهتمون فى دراستهم للمجتمعات البدائية بالبحث عن الغرائب والطرائف . ولذا كانت معظم كتاباتهم تدور حول مسائل الجنس والدين فى تلك الشعوب ، لأنها تقدم أشكالا وصورا من العلاقات والعبادات والممارسات التي تختلف كل الاختلاف عما هو سائد ومألوف فى المجتمعات الأوروبية ، كما انها تحمل فى طياتها كل عناصر الانارة والشويق . بل أن الكثير من الرحالة والبشرى كانوا يختلفون عادات وتصرفات ينسبونها لتلك المجتمعات دون أن يكون لها وجود بالفعل . وظل الحال كذلك حتى عهد قريب جدا بين بعض الرحالة . كما أن تفسيرات الأنثروبولوجيين انفسهم وثأويلاتهم لتلك العادات والممارسات كانت فى كثير من الاحيان تحمل وجهة نظر الكتاب انفسهم وآراءهم فى تلك الممارسات ، وهي آراء لا تخلو من السخرية والاستهجان ، وتزخر بالاحكام النقويمية التي كانوا يطلقونها بغير بحساب ويصفون فيها تلك الشعوب بالاباحية والهمجية والتفكك والانحلال وما الى ذلك . وهذه كلها صفات ونعوت تعبر عن موقف محدد يركز الى النظرة التطورية التي كانت تعتبر تلك الشعوب تمثل أولى وادنى مراحل التطور البشرى .

ولقد تغيرت النظرة الى الشعوب البدائية ونظمها وانساقها الاجتماعية تغيرا جذريا ابتداء من الثلاثينيات من هذا القرن ، واصبح العلماء يهتمون بدراسة هذه الانساق والنظم الاجتماعية بل والثقافة البدائية بما فيها المعتقدات والقيم الاخلاقية فى ذاتها وفى ضوء الحياة الاجتماعية العامة والظروف والملابسات التي يعين فيها المجتمع البدائي دون أن يحاولوا تفويهم هذه الظواهر الثقافية باشارة الى ثقافتهم هم انفسهم كما كان يفعل العلماء الأوائل . وقد أدى هذا الموقف الى ان أصبحت الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة ذات صبغة موضوعية الى حد كبير .

ولم يعد اهتمام الأنثروبولوجيين بهذه الشعوب ناجما عن الرغبة في تسجيل الغرائب والطرائف وعوامل الاثارة بقدر ما ينجم عن الرغبة في فهم النظم والأنساق وأنماط التفكير والقيم السائدة لدى قطاع كبير لا يستهان به من قطاعات الجنس البشري عموما ، دون ان يحاولوا تحديد مكان معين أو موضع بالذات يزعمون أن هذه الشعوب البدائية تحتله في سلم التطور . بل ان كلمة «بدائي» التي لا تزال تتردد في الكتابات الأنثروبولوجية لم تعد تحمل المعنى القديم ذاته الذي يدل على انحطاط المستوى الفكري والثقافي والحضاري كما كان يعتقد العلماء الأوائل ، وإنما أصبح مجرد اصطلاح يقبله العلماء على علاته للانساره الى مجتمعات انسانية معينة نخلف أنماط حياتها عن نمط الحياة الأوروبية الحديثة . وهذا هو الحال بالنسبة لدراسة الأنماط الكوزمولوجية السائدة في تلك المجتمعات « البدائية » . فلقد كان الهدف الاول من هذه الدراسة هو التعرف على الطريقة التي ينظر بها هذا القطاع الهام من قطاعات المجتمع البشري الكبير الى الكون وموقفه منه ، على اعتبار ان هذه النظرة وذلك الموقف يمثلان صورة واحدة من صور اهتمام الإنسان في كل عصر ومكان بالبحث عن المجهول ومحاولته كتشف أسرار الكون الذي يحيط به والذي يؤلف هو نفسه جزءاً صغيراً جداً ولكنه مهم جداً فيه . وإذا كان الإنسان الحديث قد تمكن بفضل تقدم العلم الحديث من أن يكشف لنا الكثير من خبايا الكون بحيث أصبحت الآراء القديمة و « البدائية » تثير الكثير من الاشفاق والراء ، فلا يزال أمام العلم الكثير من الأسرار التي يجب عليه اكتشافها وهتك الحجب عنها . ولن يمضي وقت طويل قبل ان تصبح هذه الأفكار والنظريات « الحديثة » عن الكون أفكاراً ونظريات قديمة وبالية ننظر اليها الاجيال القادمة على انها « بدائية » مثلما ننظر نحن الآن الى آراء وافكار الشعوب والاقوام الذين دمغهم الأنثروبولوجيون الأوائل بأنهم « بدائيون » .

* * *

المراجع

(نكتفى هنا بذكر أهم المراجع التي ورد ذكرها في الدراسة) •

«Creation» in Hastings, J. (ed): *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, Vol. IV, Edinburgh 1954.

«Cosmogony and Cosmology», in *E.R.E.* Vol. IV.

Deterlen, Germaine, « Les Correspondances Cosmo - Biologiques Chez les Soudanais », *Journal de Psychologie Normale et Pathologique*, Juillet - Septembre 1950.

Durkheim, E., *Les Formes Elementaires de la Vie Religieuse*, P.U.F., Paris 1912.

Evans - Pritchard, E.E., *Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande*, O.U.P. 1937.

; *Nuer Religion*, O.U.P. 1956.

Forde, D. (ed.); *African Worlds: Studies in the Cosmological Ideas and Social Values of African Peoples*, O.U.P. 1954

Frazer, Sir James G.; *The Golden Bough* (abridged edition), Macmillan

Lienhardt, G.; *Divinity and Experience: The Religion of the Dinka*, O.U.P. 1961.

Lowie, R.H.; *Primitive Religion*, Routledge and Kegan Paul, London 1936.

Radin, P., *Primitive Religion: Its Nature and Origin*, Constable, London 1957.

; *Primitive Man as Philosopher*, Dover Publications, London, 1957.

Tylor, E.B.; *Primitive Culture: Researches into the Development of Mythology, Philosophy, Religion, Language, Art and Customs*, 1871 (5th ed. 1913).

White, Leslie; *The Evolution of Culture*, Mc Graw - Hill, N.Y. 1959.

★ ★ ★